الدعاء

تأليف

عبد الحسين دستغيب

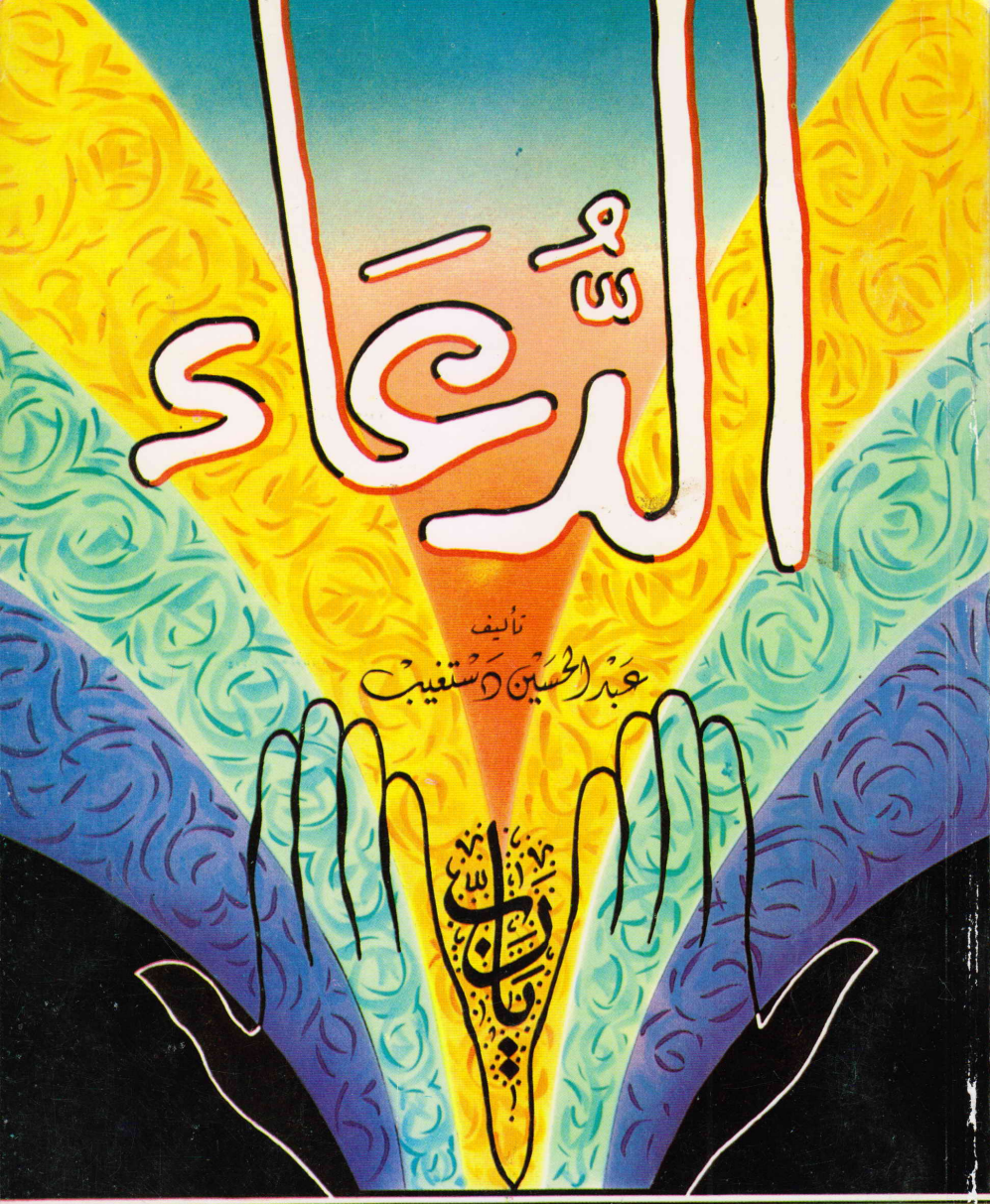

ترجمة: لجنة الهدى

مؤسسة المنار

الدعاء

الدعاء

تأليف

عبد الحسين دستغيب

ترجمة: لجنة الهدى

اسم الكتاب :	الـدعاء
المؤلف :	آية الله السيد عبد الحسين الدستغيب
الطبعة :	الثانية
الفلم والالواح الحساسة :	حميد
المطبعة :	باقري
الكمية :	**٣٠٠٠**

بسم الله الرحمٰن الرحيم

المقدمة

دعاء الله رغبة ورهبة :

﴿وللَّهِ الأسماءُ الحسنىٰ فادعوهُ بها . . .﴾[1]

من رحمة الله وفضله اللامتناهي فتحه لباب الدعاء لنا ، وإذنه لنا بالدعاء ، بل دعوته لنا لندعوه ونتّجه إليه . ولولا فضله هذا لما بقي لنا نحن الترابيون من علقةٍ بربّ الأرباب .

ولولا إذنه لنا بدعائه ، لما تجرّأنا على دعائه بألسنتنا وقلوبنا وأنفسنا الملوثة بالذنوب والمعاصي ، وطلب الحاجات منه . ولهذا فإن الدعاة إليه سبحانه يدعونه ، لكن برغبةٍ ورهبةٍ ، رغبة وأمل به لأنه تعالى مبدأ الكرم وأصله ، ولأن رحمته وسعت كل شيء ، وتسع حتى من لم يكن أهلاً لها ، وهي أهلٌ لأن تسع كل شيء .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٨٠ .

ورهبة من النظر إلىٰ عظمته تعالى ، وهم في ضعة ، ووجه مسودّ بالذنوب .

« أللهمَّ إن لم أكن أهلاً أن أبلغ رحمتك ، فرحمتك أهل أن تبلغني وتسعني لأنها وسعت كل شيء » .

وقد نسب القرآن هذا الأسلوب من الدعاء خوفاً ورغبةً إلى الأنبياء العظام ، ليكونوا أسوة للآخرين ، وليتعلموا منهم فقال : ﴿ . . . **إنّهمْ كانوا يسارعونَ في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين**﴾ [1] .

العبودية في الدعاء :

إن العبودية بمعناها الحقيقي هي ما يحس به الداعي إلى الله عند دعائه ، وهذا الشعور يمثل العجز الذي يملأ ذات الإنسان ، والحاجة التي يشعر بها في كيانه ووجوده والدعاء تعبير عن هذا العجز والإحتياج ، فالعبد يناجي ربّه ويدعوه من هذا المنطلق والإحساس .

إنه لشرف وفخر عظيمان أن تلهج ألسنتنا بذكر الله ، وتملأ قلوبنا باسمه ، فنكون في خلسةٍ سماويةٍ نناجي فيها الحق تعالى ، وهذا ما يجعل دعاءنا بحق باباً من أبواب الألطاف الإلٰهية التي خصّ بها الله أنبياءه والصالحين ممن آمنوا به .

الله يوصي النبي الكريم بالداعين له خيراً :

شيد القرآن الكريم بالمؤمنين الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشي [2] .

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ٩٠ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية : ٥٢ ﴿**ولا تطرد الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشي يريدون وجهه**﴾ .

ويوصي رسوله الأمين صلى الله عليه وآله أن لا يطردهم من مجلسه ، بل ويـأمره أن يصبّر نفسه معهم ، ويؤانسهم[1] وتلك إشارة كبرى لألطاف الله ـ جل جلاله ـ حيث خص بها المؤمنين الذين يدعون الله رغباً ورهباً ، ويريدون وجهه .

الإخلاص شرطٌ أساسيٌ في الدعاءِ :

ألمهمّ في الـدعاء ، ومـا يُبنى عليه ، هـو الإخلاص ـ أي النيـة الصادقـة حيث يقول الله في محكم كتابه : ﴿**هو الحي لا إله إلاّ هو فـادعوه مخلصين لـه الدين**﴾[2] فمتى ما شعر الإنسان بأنه في ضيق أو واجه مأزقاً محرجاً وأمامه ألف طريق وطريق للخروج منها ، فهو راغبٌ عن الدعاء أي معرض عنه . إلا أنه إذا انقطعت به الأسباب ؛ واعتقد جـازماً أنـه عل كـلّ حال ، أن المنجي هـو الله ، سواء توفرت له الأسباب أو لم تتوفر . والذي يعمل هو الله « لا حـول ولا قوة إلاّ بالله » حينئذٍ يتوجه إليه وحده داعياً مناجيّاً .

أصحاب السفينة الغارقة والدعاء الحقيقي :

هذه حقيقة ذكرها القرآن الكريم ، حيث يقـول سبحانـه وتعالى : ﴿**فـإذا ركبـوا في الفلك دعـوا الله مخلصين لـه الـدين فلمـا نجّـاهم إلىٰ البـر إذا هم يشركون**﴾[3] . نعم حين يرتفع الموج عالياً ، وتتعرض السفينة لخطر الغـرق ، وتنقطع بها الأسباب ؛ يبدأ أصحاب السفينة البحث عمن ينجيهم ، يدركون في هذه الحال أن لا منجي إلا الله .

فإذا سلموا وخـرجوا إلى السـاحل ، ونجـوا من الغرق ، فـانهم يشركـون

---

(١) سـورة الكهف ، الآية : ٢٨ ﴿**واصبـر نفسك مـع الذين يـدعون ربّهم بـالغـداة والعشي يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم**﴾ .

(٢) سورة غافر ، الآية : ٦٥ .

(٣) سورة العنكبوت ، الآية : ٦٥ .

بالمنقذ ، معللين أسباب نجاتهم بكذا وكذا .

لو سمع كميل نجواك في ليلة الجمعة :

كان فقيدنا الشهيد السيد عبد الحسين دستغيب الشيرازي ، رجل الإيمان والعمل الصالح ، والتقوى ، الغارق في ذكر الله ، والتفكر والإخلاص والدعاء .

قضى عمراً في العبادة ومناجاة الله تعالى وسار بمحبيه ومريديه والسائرين معه إلى الله طوال أربعين عاماً . في المسجد الجامع في مدينة شيراز . كل ليلة جمعة كان يقرأ وإياهم دعاء كميل بحرقةٍ وألمٍ . وكانت أصواتُ (يا رب يا الله) ترتفع من الجموع ، وهي تنادي العفو العفو ، رافعين أيدي السؤال والمذلة إلى السماء طالبة العفو والمغفرة والمعذرة ، لتغسل بدعائها وتزيل ما علق بأذيالها من كدرٍ ، ورجس طوال أيام الأسبوع . وقال شاعر عزيز علينا ـ في رثاء الفقيد :

في ليلة الجمعة لو سمع كميل نجواك لظن أن عليّاً يدعو ربّه من فاك

أعوام مضت على استشهاد ذلك النجم الساطع ، ونحن نزداد حزناً ، وأسى على فقدانه ، وما يسلينا ، ويبعث في أنفسنا الصبر ، هو الإستماع إلىٰ كلامه العذب المسجل على الأشرطة ، وما حررته يده الكريمة من مؤلفات قيمة .

يقول الشاعر في هذا المضمار :

« إذا افتقدت الورد ، فاطلب العطر من مائه »

وها نحن اليوم نستطيع أن نثمّن وندرك أهمية مئات الأشرطة التي سجلت عليها كلمات الشهيد الغالي وأحاديثه وخطبه الثمينة ، كما يمكننا معرفة مدى إخلاص محبيه ، عبر سعيهم الحثيث في جمع هذه الأشرطة ومن هذه الأشرطة

تَمَّ جمع أربعة منها في (مبحث الدعـاء) حيث تفضل الحـاج منوچهـر موريسي بوضعها تحت تصرفنا .

وفي الواقع إن هذه الأشرطة تشكل مجموعة ثمينة لأقوال شهيدنا الغالي . ونحن نرى أن الواجب يقضي أن لا يحرم المجتمع الإسلامي من الإستماع إليها أو قراءة ما تحتويه من كلماتٍ وأحاديث .

ورغم أن الأشرطة المذكورة غير كاملة ، وخاصة الشـريط الخاص بـدعاء الإمام القائم (عج) حيث أن القسم الأخير منه مسجل على أشرطة لم نعثـر عليها حتى الآن إلاّ أن الأشرطة الموجودة لها أهميتها وقيمتها .

وهـذا ما حـدا بنا إلى تـدوينها وطبعهـا ونشرهـا ، حيث أنها تشتمـل على عشرات المواضيـع القيمة ، لنهـديها إلى الأصـدقاء بمنـاسبة الـذكرى السنـوية لاستشهاد فقيدنا الغالي ، وصحبه الكرام .

إذا كان الدعاء صادراً من الأعماق ، صاحبه التضرع والبكاء :

يراد بهذا الفصل توجيه إهتمام السامع أو القارىء إلى أهمية الـدعاء وأنـه بحاجةٍ إلى بلوغ النفس مرحلة الإستعداد والتعرف على ما تريده . فالحاجة تملأ الدنيا ، سواء كانت حياة الإنسان سهلةً ومريحةً أو صعبةً . كالـطفل الـذي يشعر بحاجةٍ إلى أُمّه ، فيعبر عن هذه الحاجة بحركاتٍ معينةٍ ، أو بـالبكاء والعـويل . وهذا الأمر ينطبق على كلّ واحدٍ منا ، حين يريد التعبير عن حاجتـه في دعائـه . بل إن دعاءه سيكون مصحوباً بما يشبه إحساس الطفل ، وأكثر تضرعاً .

من المؤكد أن الله يستجيب لدعاء من دعـاء سـريعاً ، وسنـطلع في هذا الفصل على بعض الألطاف الإلٰهية في الإستجابة لدعاء عباده .

ألمهمّ في الدعاء هو الإنقطاع عن الأسبـاب والتوجـه كليّاً إلى مسبب تلك الأسباب . هنا فقط ترى أن الإسم الأعظم يرافق حالة الإنقطاع هذه « يا أللهُ » .

الدعاء الحق ترافقه الإستجابة :

وفي هذا الفصل سنطلع على مسائل جديرة بالإهتمام ، كمعرفة حقيقة الدعاء ، الحاجة الحقيقية حالة الإضطرار . فإذا رافق الحاجة النفسية القلبية للإنسان التعبير اللفظي للدعاء ، فستكون إستجابة الدعاء مرافقة لا محالة . أما طلب الشيء دون علم وإدراك ، في حين يخفي الطلب بين طياته مزيداً من البؤس والشقاء والهلاك لصاحب الدعاء ، فلا يعتبر دعاؤه حقيقيّاً ، إنما هو ترديد لجملات يتفوه بها فقط . والله لا يستجيب لمثل هذه الدعوة ، بل إن رحمته الواسعة ، ورأفته بعباده تلبي الحاجة الحقيقية والواقعية . وبما تضمن راحته وسعادته في الحياة أو ما تؤمن مؤونة آخرته كإنقاذه من نار جهنم . وتلك أفضل بكثير من الشفاء من ارتفاع حرارة الإنسان من حمّى عارضة أصيب بها .

كما يجب أن لا يترك الدعاء ، بدعوى أن الله يعطي ما يراه صالحاً . إذ أن المصلحة قد تقتضي الدعاء ، ومن الممكن ، أن يستجاب دعاؤك . فإن دعوته أعطاك ، وإن لم تدعوه لا يعطيك ، ففي الدعاء خيرٌ على كلّ حال .

الإعتراض على القدر يخالف العبودية :

نحن بحاجةٍ مستديمةٍ ، لذا وجب علينا الدعاء الدائم ، خاشعين أمام إرادة الله ، راضين بقضائه وحكمه ، ما للعبد والتساؤل ؟ فالدعاء في حقيقته إعتراف بالعبودية ، لا تدبير ولا مصالح فردية ، أو إعتراض على حكمه وقضائه . وبتعبير أدق ، فالدعاء استجداء لا أمر وحكم . توجه الإنسان بقلبه وروحه إلى الله ، والتّضرع بكلّ جوارحه شرط رئيسي في كلّ دعاء ، وذلك ما سنراه في الفصول الأولى من هذا الكتاب الشريف .

زينة العلم الزهد :

من الفصول الأخرى التي يضمها هذا الكتاب دعاء للإمام القائم (عج) صاحب الزمان ، يبدأ بـ « أللهّم ارزقنا التوفيق والطاعة ، والبعد عن المعصية وعرفان الحرمة » كما جاء في هذا الدعاء « وعلى علمائنا بالزهد والنصيحة » فالإمام (عج) يدعو الله أن ينعم ويمنّ على العلماء بفضيلة الزهد .

ملاحظة :

من المؤسف أننا لم نوفق حتى الآن في العثور على الشريط الخاص بتسجيل هذا الدعاء .

نعم ، إن الزهد شرط أساسيٌ ، ينبغي للعالم التحلي به ؛ ليكون أهلاً لإرشاد الآخرين . وقد جاء في حديثٍ نبويٍّ شريفٍ أن « رأس كلّ خطيئة حب الدنيا » . فبديهي أن يكون حب الدنيا رأس كلّ انحراف وخطيئة ، وكيف يستطيع محب لدنياه أن يهدي الآخرين نحو تجنب الخطيئة ، وبذورها مغروسة في نفسه ، وهي حبُّ الدنيا ، لذا فالإمام القائم (عج) يبدأ دعاءه : أن ينعم الله على العلماء بفضيلة الزهد ثم التوفيق لهم في النصيحة والإرشاد .

لدار الآخرة أولى أن تحب :

لشهيدنا الكبير شرح واف لهذه الجملة ، ولمعنى الزهد والنصيحة ، وهو يرى في الزهد والنصيحة تكليفين إلٰهيين مهمين للجميع ، غير أن مسؤولية العلماء أكثر من غيرهم في هذا المضمار .

ثم يتطرق في حديثه إلى تفاهة الدنيا بالنسبة إلىٰ الدار الآخرة . فهذه الدنيا هي دار الفناء ، وتلك دار البقاء . وكانت دعوة الأنبياء تتركز على العمل للدار الآخرة الخالدة ، والسعي للتزود بزاد يعين الإنسان حين يشدّ الرحال إلى الدار الثانية ، حيث الخلود والبقاء .

ويتطرق الشهيد الغالي ـ أيضاً ـ إلى حدود الزهد ، ومقداره لكي لا يقال : إن الزهد أمرٌ أخلاقيٌّ عديم الأهمية . ويوضح للقارىء أو المستمع أن العيش في هذه الدنيا مهما طال أو قصر ، لا يمكن قياسه بمرارة النزع الأخير حين الوفاة ، فلمَ كلّ هذا الإهتمام والتمسك بالحياة الفانية .

طلب الشفاء للمرضى والرحمة للأموات :

وهو إذ يطلب في دعائه الشفاء لكلِّ مريضٍ ، يرى من واجب كلّ مؤمن أن يتمنى الخير للآخرين ، ويعتبر زيارة وعيادة المرضى مع تقديم هدية لهم ، ومؤانستهم من المستحبات المؤكدة اللازمة .

ويلي تلك العبارات دعاء يطلب المغفرة للموتى ، وبكلماتٍ بسيطةٍ وصادقةٍ يقول : إن الأخوة في الدين لا تنتهي بمجرد الوفاة ، بل يجب الترحم على الموتى ، وذكرهم بالدعاء مترحماً ومتصدقاً .

كما يرى أنه من حقِّ الأخوّة في الدين المشاركة في تشييع الجنازة ، وزيارة قبور الموتى ، حيث أن روح الميت تسمع وترى ، وزيارة قبورهم تسر أرواحهم ، كما لو كانوا أحياء .

الله لطيف لا يأخذ العبد بعتابه :

في نهاية الحديث يتطرق المغفور له إلى جهل الإنسان حيث يقول : كثيراً ما يعاتب العبد ربّه ، كما يعاتب الدائن المدين ، حيث يرغب أن يستجيب الله لدعائه . وإلّا إن ربّنا الصابر الرحيم لا يأخذ العاتب بعتابه . وهنا يشرح كيف أن التأخير في إجابة الدعاء قد يكون فيه صلاحٌ للعبد السائل . ولو استطاع هذا السائل إدراك ذلك لشكر الله سبحانه وتعالى على عدم إستجابته لدعوته في حينها ؛ إذ كثيراً ما يكون في التأخير في إجابة الدعاء كسب المزيد من الخير أو الاستعاضة عنه بقضاء حاجة أكبر أو دفع ضرر أكبر .

وعلى أيِّ حالٍ ، فالمطلوب أن ندعو الله أن يوفقنا في الإنقطاع عن الأسباب ، أما إستجابته لدعائنا دون أن يكون هنا انقطاعٌ عن الأسباب ، فذلك فضلٌ لا نستحقه .

وفي آخر الحديث يتحدث عن دعاء « أمن يجيب المضطر إذا دعاه » . وفي دعائه هذا يطلب خاشعاً من الله التوفيق في بلوغ حالة الإضطرار .

وفي المبحث الثاني من الكتاب هناك مواضيعٌ متنوعةٌ ومتعددةٌ ، منها ـ إشارة إلى ما يخص الدعاء ، وهي مواضيع لم تنشر من قبل ، وجاءت في سبع فصول . وقد أسعدنا الحظ بالحصول على عدد من الأشرطة لأحاديث سجلها الشهيد الغالي ، وتتضمن دروساً قيمةً لمجتمعنا الإسلامي .

ورغم أن الحق يقضي أن يخصص مؤلَّف لكلِّ فصلٍ من فصول هذا الكتاب ، إلاّ أننا وفي هذه العجالة ، ولضيق الوقت حيث اقترب حلول الذكرى السنوية لاستشهاد عالمنا الجليل ، ونحن بصدد الكلام والبحث عن الدعاء والنجوى ، فقد آثرنا جمع هذه الأحاديث في هذا الكتاب في جملة مواضيع من جملتها :

تحصيل العلوم الدينية . اليقين بالمبدأ والمعاد . الإيمان والولاية . الآيات الكونية والنفسية : معرفة الذات وحقيقة الموت .

ومئات من المواضيع الأخرى الشيقة والجديرة بالقراءة والتأمل .

ندعو الله العلي القدير ، في ذكرى استشهاده ، وفي كلّ صباحٍ ومساءٍ أن يغمر روح فقيدنا الغالي ، وأرواح صحبه الكرام برحمته الواسعة وألطافه الإلٰهية ، وأن يوفقنا إلى متابعة السير في ذات الطريق .

واللعنة على المنافقين الذين انحرفوا عن طريق الصواب والحق ،

فارتكبت أيديهم الأثيمة تلك الجريمة المروعة التي حرمتنا نور ذلك الكوكب المنير ، وأنفاسه القدسية .

سيد محمد هاشم دستغيب ،
شيراز سنة ١٩٨٤م ـ ١٤٠٥ هـ

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الفصل الأول

الحاجة تسيطر على الإنسان :

منذ ولادة الإنسان ، وحتى رحيله إلى العالم الآخر ، تحيط به الحاجة في جميع شؤونه ، وليس للإنسان في الواقع أي استقلال ، لا من حيث الذات ، ولا الصفة ، ولا الفعل ، والآية الشريفة تقول : **﴿يا أيها الناسُ أنتُمُ الفقَراءُ إلى الله والله هو الغنيُّ الحميدُ﴾**[1] .

وحتى أكثر الناس غنى وثروة وقدرة يشعرُ بالحاجة ، تغمره من قمة رأسه ، وحتى أخمص قدميه ، كغيره ، إذ ليس هناك أي فرق بين أفراد البشر ، والكل في حاجةٍ ماسةٍ إلى الحق تعالى ، وفي كلّ لحظةٍ من اللحظات .

وعالم الخلق لا يمتّ بصلةٍ إلى البنّاء ، والمعمار الذي يترك البناء متى ما اكتمل قائماً بذاته . بل هو كالمصباح الذي يحتاج إلى ملاحظةٍ دائمةٍ

---

(١) سورة فاطر ، الآية : ١٥ .

ومستمرةٍ ، حيث سينطفىء حتماً متى ما قطع عنه التيار الكهربائي ولو للحظةٍ واحدةٍ .

والتعبير الصحيح في هذا المجال هو القول بان المخلوق لا يستغني حتى ولو لأقل من لحظةٍ عن الخالق . فأصل الوجود والبقاء والإستمرار هو الخالق . وكلّ خصائص ومميزات وآثار هذا الوجود في حاجةٍ ماسةٍ إلىٰ الخالق وبشكلٍ مستمرٍ .

الدعاء نابعٌ عن الشعور بالحاجة :

الدعاء هو الصدى أو الإنعكاس الحقيقي لمشاعر الحاجة والعجز التي تغمر الإنسان ، وهذه الحاجة هي التي تساعد الإنسان على تحديد رغباته ومطالبه الذاتية ، وترجمتها على شكل دعاء . فعندما يقول الإنسان : أللّهمّ هب لي الصحة ودوام العافية ، ولا تسلبها مني ، فهو يعني تماماً بأن العافية التي ينشدها ، ويطلبها من الباري ـ عزّ وجلّ ـ إنما ترتبط إرتباطاً وثيقاً ، وتعتمد إعتماداً كاملاً على الإرادة العليا .

وعندما يستجيب سبحانه وتعالى لدعاء « أللهمّ امنحني القوة » يصبح يقيناً لدى الإنسان أنه لا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم .

فحقيقة الدعاء تتجلّى إذن : في الكشف عن جوهر الحاجات والرغبات الفطرية ، والكامنة في ذات الإنسان ، وترجمتها لفظيّاً ـ أي النطق بها على صورة دعاء .

الحاجة إلى الدعاء حتى في أوقات الراحة والرخاء :

وعلى هذا نقول : إن الدعاء يشمل كلّ الحالات التي يمر بها الإنسان

وليس فقط عندما يكون الإنسان على فراش المرض ﴿أمن يجيب المضطرّ﴾[1] وعندما يكون الإنسان متمتعاً بالراحة والصحة عليه أن يدعو ـ أيضاً ـ ﴿أمّن يجيب﴾ وأن يردّد : إلٰهي أنا الفقير إليك ، هب لي دوام العافية .

ماذا يفعل الإنسان عندما يصعب عليه بلع اللقمة ؟

فلأن هناك من يحرسه ويحفظه في جميع حالاته عليه أن يحمد الله ويشكره بعد انتهائه من الأكل . إلاّ أننا ابتلينا بالغفلة ونسينا تلك المعاني الجليلة ؛ ذلك أننا نعلم جيداً أن كل النعم التي نتنعم بها هي هبةٌ من الله ـ عزّ وجلّ ـ لكننا تعوّدنا عليها ، لذلك نعيش بحكم العادة ، وبدون إهتمام يذكر .

هذا في الوقت الذي يحتاج فيه الإنسان في كلّ مرحلةٍ من مراحل حياته إلى الخالق ـ جلّ جلاله ـ واستمرار وجود الإنسان ، وخواص وآثار هذا الوجود ـ في الدنيا وفي الآخرة ـ في حاجةٍ قصوى إلى الله تعالى .

ومن ثَمَّ ، فان الدعاء يشمل كلتا الحالتين : السراء والضراء على السواء .

في السراء على العبد المؤمن أن يردد : ربي أدم عليَّ نعمتك .

وفي الضراء : ربي تفضل عليَّ برفع البلاء والمصائب عني .

حاجة الطفل إلى أُمّه :

في باب استجابة الدعاء الخالص ، أعرض هنا مثالاً :

ربّ العالمين ، وبحكمته البالغة عهد ببعض شؤون تربية مخلوقه في مرحلة الطفولة إلى والديه . وهذا لا يعني أن الأُم والأب يتوليان بالكامل مسؤولية تربية الطفل ؛ إذ أنه يخضع في الواقع للتربية الإلٰهية ؛ فكلّ شيء بإذن

---

(١) سورة النمل ، الآية : ٦٢ .

الله تعالى وقدره وقضائه . نعم إن الوالدين مسؤولان عن النظام الغذائي للطفل ونظافته وكلّ شؤونه الصغيرة الأخرى ، إلّا أنه فيما يخص الأمور الربانية كوضع الطفل مع والدته ، حيث لا يرجو سواها في الدنيا ، ومثل هذا الوضع شبيه بحالة الدعاء .

فمتى شعر الطفل بالجوع نادى أُمّه ، حتى وإن لم يكن قد بلغ مرحلة النطق الواضح والصحيح ، فانه يعبر عن جوعه ، وآلام معدته بطريقته الخاصة .

ومن ثَمَّ فإن حالة الدعاء تعني في الواقع التعبير عن الحاجة الفطرية للإنسان . كما يعبر عنها الطفل من خلال التأوه والبكاء .

هناك مثل يقول بأن الأُم هي مصباحُ قلب الطفل ، فعندما تكون الأُم موجودةً يشعر الطفل باكتفاءٍ تامٍ .

العاقل يشعر بحاجته إلى الله :

عندما يصل الإنسان إلى مرحلة النضج العقلي الكامل ؛ عليه أن ينميّ علاقته اللامتناهية ، وارتباطه اللامتناهي مع خالقه ، كالإرتباط الوثيق الذي كان يتمتع به مع والدته ، وأكثر من ذلك . وفي هذه الحالة ، فانه سيتوجه كليّاً وبكلّ جوارحه إلى الخالق ـ عزّ وجلّ ـ وتصبح آماله ورغباته وحاجاته على صلةٍ وثيقةٍ بخالقه .

قال الله تعالى لعيسى ابن مريم : « حتى ملح حسائك أطلبه مني » وهذا لا يعني ترك السبب ، بل الإعتقاد بعدم استقلالية السبب ، والسعي وراء السبب عبر التوكل على الله .

فتعساً للشقي الذي بلغ أربعين عاماً من العمر ، ولا يزال كأي طفل في الرابعة من عمره ، تدور كلّ آماله حول والدته التي أصبحت الآن تشكل أمواله

وثـروته ، وادخـاراته في المصـرف ، ألا يجب أن يصل مثـل هـذا الإنسـان إلى مرحلة النضج العقلي الكامل .

الله تعالى سريع الإستجابة :

لو أجرينا مقارنـةً بين سرعـة استجابـة الأُم لطفلهـا الصغير ، وبين سـرعة استجابته تعالى سبحانه لعبده ، لرأينا أن الأخيرة أسرع مئة مرة من الأُولى .

فلو تأوّه الطفل آهةً واحدةً لسارعت الأُم إلى تلبية حاجته ، وإن كان جائعاً أسرعت إلى منحه ثديها ، وإن تألّم أعطته الدواء على عجلٍ .

واستجـابة الله لـدعاء عبـده المؤمن أسرع من ذلـك آلاف المرات ، ففي اللحظة التي يئن فيها العبد طالباً حاجةً ، تأتيه الإستجابة .

اللص الذي كان يريد قتل أحد الصحابة :

في عهد الرسول صلى الله عليه وآلـه سافـر أحدُ الصحـابة طـالباً للتجـارة ببعض البضـائـع وفي وسط الصحـراء اعتـرضـــه أحـدُ اللصـــوص ، فلم يجـد الصحابيُّ بدّاً من التسليم لأنه لم يجد سبيلاً آخر للخلاص منه .

فقال له : خذ ما تريد مني واتركني .

فأجابه اللص : أنا لا أريد مالك فقط ، بل ورأسك أيضاً .

فتـوسل الصحـابي إليه وهـو يائسٌ ووحيـدٌ ، وقال لـه : مـاذا تستفيـد من قتلي ؟

فأجابه اللص : قد تخبر عني فيتعقبونني ، وبهذا تسبب لي مشكلةً أنا في غنىً عنها .

وبعـد أن يئس الصحـابي . سـأل اللصَّ أن يسمـح لـه بصـلاة ركعتين . ووافق اللص ، فصلّى الصحابي ركعتين أعقبهما بدعاءٍ ردّ فيه :

« يا ودود ، يا قريب ، يا مجيب ، يا فعالاً لما يريد أنظر لحالي وأغثني » .

سرعة النجدة الإلٰهية للمظلوم :

عند ذلك ظهر فارسٌ قتل اللصّ بحربةٍ كان يحملها ، والتفت إلى الصحابي المظلوم . وقال له : خذ كل ما يملك .

فألقى الصحابي بنفسه على ذلك الفارس . وقال له : أناشدك الله أن تخبرني عن هويتك ، وقد أنقذتني .

فأجاب الفارس : أنا ملكٌ من السماء السابعة ، وقد جاءني أمر الملأ الأعلى ـ في اللحظة التي كنت تدعو بها ـ أن ألبّي دعاءك . وبعد ذلك توارى الملك عن الأنظار ، واختفى .

وبعد أن وصل الصحابي إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وآله قص على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ما جرى له في الصحراء . قال ـ عليه وآله أفضل الصلاة والسلام ـ : « لقد دعوت الله بأسمائه الحسنى ، فأتاك الفرج من لدنه تعالى » .

اللص الذي اعتدى على الإمام السجاد عليه السلام :

إن الله سبحانه وتعالى سريع الإجابة . وفي ذكر أحوال الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام جاء أنه خلال سفره إلى الحج اعترضه في الصحراء لصّ من الزنادقة ، وأراد سرقة أمواله . وكان اللصّ يملك خنجراً هدد به الإمام زين العابدين عليه السلام .

فقال له الإمام عليه السلام : خذ أموالي وانصرف .

إلاّ أن اللص هجم على الإمام عليه السلام ، ليذبحه .

فقال له الإمام : ماذا تريد مني بعد ؟

فقال اللص : أريد حياتك أيضاً . فدعا الإمام عليه السلام ربّه أن إحكم بيني وبينه .

وما كاد عليه السلام يتم هذه العبارة حتى ظهر شخصٌ ، وضرب اللصّ فأرداه قتيلاً .

الأُم منتهى آمال الطفل :

قلنا : إن سرعة استجابة الأُم لنداء وحاجات ورغبات طفلها تكون في منتهى السرعة ، إلاّ أن سرعة إستجابة الله لعبده تفوقها بآلاف المرات .

فلتكن لدى الإنسان المؤمن حالة إلتجاء إليه سبحانه وتعالى كالطفل الذي لا يرى ملجأً له سوى أُمّه .

وبطبيعة الحال ، فان بلوغ الإنسان مرحلة الإنقطاع التام إلى الله ـ جلّ جلاله ـ كحال الطفل وأُمّه . فتكون إستجابة الله لدعائه سريعة . إلاّ أن الأسباب تعمي العيون وتصم القلوب . فكيف يمكن التوصل إلى تلك الحالة في الإنقطاع التام إلى الله سبحانه ـ عزّ وجلّ ـ ؟

يتحقق الإنقطاع التام إلى الله من خلال الدعاء المخلص النابع من أعماق القلب .

فالدعاء بـ (يا أله) يصلح كلّ شيء . إلاّ أننا نقول بلساننا (يا أله) وقلبنا عاجزٌ عن الوصول إلى تلك الحالة السامية ، لآلاف من الأسباب . ورغم ذلك فانه يتوقع أن يستجيب الله لدعائه متى ما قال : يا أله .

فواحد فرح بأمواله التي يكدسها في المصرف . وآخر بمنصبه ، وآخر بأولاده أو بعشيرته ؛ ذلك أن لكلّ إنسان إهتمام معين ، وعواطف يوجهها نحو ما

يعشقه أو يهتم به .

أللهمّ هب لنا حالة الإنقطاع إليك :

حب الطفل واهتمامه يدوران حول محورٍ واحدٍ ، هو أُمّه ، فان سقط على الأرض وبكى فانه سرعان ما يهدأ ، لأن أُمّه أسرعت إلى ملاطفته ، وهو أيضاً ـ يبادلها العاطفة بالعاطفة ، لأنها أمّه ومحور عالمه ودنياه .

وكذلك مرحلة الإنقطاع إلى الله تعالى ، فهي درجةٌ ومنزلةٌ ، غاية في الرفعة والسمو ، بحيث دأب الإمام عليه السلام على طلبها من الله تعالى وهو يردّد : « هب لي كمال الإنقطاع إليك » .

ومع ذلك ، وفي بعض الأحيان ، ورغم توفر كافة شروط قبول الدعاء ، إلاّ أن الدعاء لا يستجاب . وفي مثل هذه الحالة ، فان إستجابة هذا الدعاء قد تمثلت بعدم تلبية الحاجة ، وبمعنى آخر في عدم الإستجابة .

وسوف نشرح تفصيل مثل هذه الحالة في مجال آخر إن شاء الله .

الإسم الأعظم في حالة الإنقطاع :

بدون شك عندما يذكر إسم الله الأعظم على شيءٍ ، يتحقق ما يريده الذاكر . إلاّ أن ذكر الإسم الأعظم يجب أن يتم في حالة الإنقطاع التام إليه تعالى . أي لا يكون لدى الإنسان إعتماد على أي مخلوقٍ آخر ـ من دون الله .

وبلوغ هذه المرحلة من الإنقطاع إلى الله تعالى ، يعني إستجابة الله تعالى لدعاء الإنسان مباشرة ، وبدون تأخير ، ما عدا في بعض الحالات والموارد الإستثنائية .

تقول إحدى الروايات إن أحد الأشخاص سأل الرسول صلى الله عليه وآله أن يعلمه الإسم الأعظم . فقال له الرسول : «إقطع قلبك عن غير الله ، وقل :

يا أله . تحصل على ما أردت » .

إلاّ أن قطع القلب وفصله عن غير الله ، هو حالة نادرة جـدّاً . وخصوصـاً عندما الشهوات تعمي القلوب والأبصار .

«إلٰهي هب لي كمـال الإنقطاع إليك ، وأنر أبصار قلوبنا بضيـاء نظرهـا إليك حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور ، فتصل إلى معدن العظمة » إلٰهي وربي بحق محمد وآل محمد تفضل علينا جميعاً بحالة الإنقطاع الكامل إليك .

ربـح عظيم وجميـل أن يبلغ الإنسان الحـالة التي وصفتهـا الآية الكـريمة « قـل الله ثم ذرهم » . الله فقط ، هـل من الممكن أن يكـون هـذا الأمـر من نصيبنا ؟؟

الفصل الثاني wwwwwwwwwwwwwwwwwwwwwwww

الدعاء الذي ليس في محله :

الحاجات التي يطلبها العبد من ربّه ، ليست بالضرورة صالحة . وبمعنى آخر قد لا تكون موضع إستجابة من الله سبحانه وتعالى ، فقد يدعو العبد الله ـ عزّ وجلّ ـ أن يمنح فلانَ من الناس الشفاء ، ويطيل في الدعاء ، ويبالغ في إعطاء الصدقات وترديد التوسلات ، إلّا أن المريض يموت في آخر المطاف .

وهنا قد يتساءل العبد : أليس الدعاء لا يردّ ؟ دعاء هذا العبد لم يكن في موضعه الصحيح ، حيث أن شفاء المريض يكون محتماً متى ما قدّرت له الحياة ، ولم يكن الأجل المحتوم أمامه ؛ لذا يقال : (ثبّت الأرض ثم انقش) فان كان للمريض أن يشفى من مرضه ، ويعيش ، فان الدعاء سيستجاب . أما عندما يحل الأجل فليس هناك مجال للمزيد من الدعاء .

هناك دعاء يقول : « يا من لا يرد حكمتَه الوسائلُ » فالوسائل لا ترد حكمة الله تعالى . وموت المريض لا يعني عدم إستجابة الخالق لدعاء المخلوق ، بل

لأنه ليس هناك أي مجال لتحقق هذا الدعاء أمام حكمة الله . وقد يمنح الله بدلاً من ذلك السلامة لأحد أقرباء المريض ، وحتى المريض الذي وافاه الأجل ، فانه سيحظى بالعناية والرحمة الإلٰهية .

فلا تقل أيها العبد المؤمن : إن دعاءك لم يستجاب ، بل قل : إن دعائي لم يكن صحيحاً ، وكنت أجهل ذلك .

طلب البلاء من الله سبحانه وتعالى :

والقضية الأُخرى التي يمكن طرحها في هذا المجال ، هي : إن الإنسان قد يطلب حاجةً ما من الله ، إلاّ أن قلبه يتمنى في الواقع حاجةً أو شيئاً آخر ، إلاّ أنه يجهل ذلك على وجه الدقة . وعلى سبيل المثال : قد يدعو الإنسان ربّه بأن يهب له طفلاً . وهو قد لا يرغب في الطفل بحدّ ذاته ، بل ليكون باعثاً على تحقق مسرته وأنسه ، وعوناً له ، ونوراً لعينه . وعندما ردّد هذا الإنسان دعاءه ، لم يحدد تماماً أماني قلبه ، لأنه قد يرزق بطفلٍ يشقيه ويؤذيه في المستقبل . ومن المؤكد أنه لا يريد مثل هذا الطفل ، لكنه نسي مثل هذا الإحتمال ، لاعتقاده بأن وجود طفل في حياته سيحقق له أقصى درجات السعادة . قال تعالى سبحانه في كتابه الكريم : ﴿**وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم**﴾ ، ذلك أن الإنسان قد يكون جاهلاً بحقيقة رغبات قلبه . والفطرة الإنسانية ترفض ـ هي أيضاً ـ ما يردّده اللسان .

حتمية الإجابة للحاجة الحقيقية :

قد ينوء شخص ما من ثقل دين واجب الدفع ، فيدعو الله تعالى بقوله : « إلٰهي تفضل عليّ بأداء ديني بسرعةٍ » كما أن قلبه يردد مع لسانه ـ أيضاً ـ : « ربي لا تردني عن بابك خائباً » وفي مثل هذه الحالة انسجمت وتوافقت حاجة القلب مع دعاء اللسان . ومن المحتم أن الله تعالى سيستجيب لهذا الدعاء لأنه حقيقيٌ .

إن الألطاف الإلٰهية الكامنة وراء أستار وحجب الغيب تلبي الدعاء الحقيقي الذي ستتطابق فيه رغبات القلب مع دعاء الإنسان .

ولمزيد من التأكيد ، فالدعاء الحقيقي يستوجب توفر شرطين : طلب ، وحاجة واقعية ليس فيها لبس . وانقطاع تام إلى الله تعالى ، والتمسك والتوسل به وحده .

وعدم استجابة الله لدعاء العبد ، قد تعني عدم توفر أحد هذين الشرطين أو كلاهما . وذلك أن الحاجة قد تكون غير حقيقية والطلب ليس في موضعه الصحيح أو أن الإنسان لم يردّد كلمة « يا أله » من أعماق قلبه ووجوده وذكرها لسانه فقط . وكذلك بالنسبة للعين التي تصدّ عن غير الله ، فيصبح الإنسان حينذاك « مضطراً إلى الله » وتكون كلمة « يا أله » وحدها كافية .

الإضطرار الكامل يتجلى في إمام الزمان (عج) :

حتى ما رأى العبد نفسه محتاجاً إلى الله ، وليس إلى الأسباب ، فانه يكون مضطراً إلى الله سبحانه وتعالى ، وفي مثل هذه الحالة ، فان دعاءه يكون مستجاباً وعلى الفور ، إلّا أن الإنقطاع الكامل إلى الله تعالى له درجات ومنازل عديدة ، والإمام الثاني عشر ، الحجة ابن الحسن العسكري (عج) قد احتل أعلى هذه الدرجات .

ذكر كتاب (النجم الثاقب) ما يقارب المئتين صفة للإمام صاحب الزمان (عج) وفيها صفة المضطر ، وصفة المضطر لا تعني العاجز أو المريض أو المتخلف في الطريق ، ذلك أن الإضطرار إلى الله هو حالة لا يستطيع بلوغها من لم يصل إلى مقام اليقين السامي .

أعلى درجات الإضطرار إلى الله تعالى والتي وصف بها صاحب الزمان (عج) هي التوحيد الحقيقي ، وحقيقة التوحيد في هذا المقام المعظم الذي يرى جزئيات ، وكليات الأمور في حالة إرتباط وثيق واتباع ، وافتقار إلى

الله ـ عزّ وجلّ ـ .

دعاء إمام الزمان حقيقيٌّ مع انقطاعٍ تامٍ إلى الله تعالى :

علم هذا الإمام العظيم يبلغ عين اليقين ، وعينه تبلغ حق اليقين . نعم إن كمال المراتب قد تحققت في هذا الإمام الذي جاء فيه « أين المضطر الذي يجاب إذا دعاه » فدعاؤه حقيقيٌّ تتطابق فيه الحاجة الخالصة مع الإنقطاع التام إلى الله سبحانه وتعالى .

عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير آية ﴿أمّن يجيب المضطر﴾ أن الإنسان الذي تتوفر فيه كل معاني الإضطرار هو قائم آل محمد (عج) .

وفي روايةٍ أخرى يقول عليه السلام : عندما يراد للحجة الظهور ، فانه سيقف أمام الكعبة المكرمة ، وظهره إلى مقام إبراهيم محاذياً للكعبة ، وأنه سيصلي ركعتين ثم يرفع يده بالدعاء ، قائلاً : « ربي انجز لي ما وعدتني » وفي تلك اللحظة بالذات ستتم إجابة دعاء صاحب الزمان (عج) .

وكما يصف الإمام الصادق عليه السلام : « ما أرسل أحداً من أنصاره إلى مكانٍ إلاّ فتحه ورجع منه ظافراً فاتحاً » .

ونفهم من كل ذلك أن لحظة الإضطرار الحقيقي تؤدي مهمتها ووظيفتها .

حاجة القلب لا تنسجم مع رجاء اللسان :

ليس للعبد الإدّعاءُ بأن دعاءه لا يستجاب ، فهو عندما دعا الله لم يكن طلبه حقيقياً نابعاً من القلب ، بل كان ظاهرياً وكاذباً ، فلو كان للعبد إدراك ووعي بدخيلة نفسه وبشروط الدعاء ، لعرف أن دعاءه لم يكن خالصاً ، وأن حاجته لم تكن في موضعها الصحيح .

وعلى سبيل المثال : قد يطلب مريض الشفاء من الله ، والنهوض من

فراش مرضه ، بينما تكون كل ليلة تلسعه فيها الحمى كالنار ، كفارة له عن ذنوبه لسنة كاملة ، بحيث تضمن له السلامة على الصراط المستقيم . كما أن بقاءه مريضاً لإسبوع واحدٍ سيعفيه من كثير من المعاناة في المستقبل .

وفي هذه الحالة ، فالدعاء الحقيقي والخالص يتمثل في بقائه على فراش المرض لإسبوع أو أكثر . إن عدم إدراك المريض لهذه الحقائق ، تدفعه إلى ترديد الدعاء بالشفاء العاجل .

عدم ترك الدعاء في كافة الأحوال :

لقد سبق وأن ذكرنا أن عدم إجابة دعاء العبد ، قد تكون في أن الحاجة التي طلبها لم تكن في موضعها الصحيح ، أو أن هناك مصلحة ما للعبد في عدم تلبيتها إلا أن ذلك لا يعني أن يترك الإنسان الدعاء . فالدعاء هو عبادة من العبادات ، فقد لا يستجيب الله سبحانه وتعالى لدعاء عبده إلّا أنه يشمله بعنايته وعطفه . فعلى الإنسان أن يدعو الله بشفاء مريض له ، فإذا كان في عدم شفائه رحمة له ، فقد أخطأ الإنسان في طلبه ، وسيشمله الله تعالى برحمته ولطفه .

ولماذا لا يسأل المريض نفسه إيهما أنفع له ؟ أن تطفأ عنه نار جهنم أو نار الحمى ؟ من المؤكد أنه سيقول من صميم قلبه : « لا أريد أن أتعرض لنار جهنم ولو للحظةٍ واحدةٍ » .

النجاة من جهنم أفضل من المعافاة من المرض :

لو كشف للمريض حجب الأسرار لأدرك أن إضطراره إلى الخلاص من نار جهنم أعظم من إضطراره إلى الشفاء ؛ لذلك لا ينبغي أن يستهين العبد بالدعاء ، وليكن لديه يقين بالإجابة ، فان لم تتم الإجابة لدعاء المريض مثلاً ، فلنعلم بأن الله سيعوضه بعطاء أفضل بكثير ، وهو النجاة من جهنم .

وهذا العطاء الإلٰهي ليفوق المعافاة من كافة الأمراض التي يُبتلَى بها

الإنسان . ومثله كمثل الإنسان الذي يدعو ربّه بأن يعطيه درهماً واحداً ، فيعطيه الله الملايين ، فليتوكل العبد على الله ، وهو أعلم بصلاحه .

الدعاء ينبع من القلب :

الركن الثاني من أركان الدعاء ، هو الإضطرار إلى الله ، وليس كل مضطر دعاؤه مجاب فالمضطر هو الذي يتوجه إلى الله تعالى فقط ﴿**أجيب دعوة الداعي إذا دعاني**﴾ وقلبه يردد فقط الإسم الأعظم . وفي هذا الذكر لاسمه تعالى يضع كل إضطراره وبؤسه ، وشقائه : هلاَّ أعدنا النظر في ذواتنا ودخيلة نفوسنا ؟

فمن نحن لنقول : إن الله لم يستجب لدعائنا ! فالمريض يجب أن ينظر جيداً إلى نفسه ، فلسانه يقول : (يا أله) إلاّ أن قلبه يردد ، أين الطبيب ، وأين الدواء . لسان المديون يدعو أن ساعدني يا ربي على وفاء ديني . إلاّ أن قلبه يتعلق بهذا السبب أو ذاك . فمن يرجو إذن هذا القلب ؟

لو أحكمنا الفكر لوجدنا أن القلب إنما يرجو غير الله تعالى . فمن الصعوبة بمكان أن ينقطع عن جميع الأساب ويتجاهلها ، ليستضيء القلب بنور اليقين .

من نحن في هذا العالم المتحايل ، الذي لا نملك فيه أي شيء . ومتى ما بلغ الإنسان مرحلة تجاهل كافة الأسباب أمام عظمة الخالق ـ عزّ وجلّ ـ فانه سيدرك المعنى الحقيقي لعبارة « الإضطرار إلى الله » .

وكما قلنا ، فان الحجة ابن الحسن (عج) قد احتل أوج هذه المنزلة السامية . أما عامة الناس ، فان إضطرارهم إلى الله لا يكون خالصاً وحقّاً . فالأسباب والماديات تجذبهم بشدهم نحوها . إلاّ أن الكل وبدون استثناء يخضعون لقوة واحدة قاهرة ، ولإدارة مدير واحد ، وتدبير مدبر واحد ، و « لا إله إلاّ الله ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم » .

الأمل بالرحمة والكرم الإلهي وببركة الإمام (عج) :

ليس على الإنسان أن يترك السبب تماماً ، بل أن يعي جيداً أن مسبب جميع الأسباب هو الباري ـ عزّ وجلّ ـ ودعاء « يا مجيب المضطر بحق المضطر » يعني أن الحجة ابن الحسن (عج) هو المضطر إليك . وبعبارة أخرى : فان الإمام (عج) هو المضطر إلى الله تعالى حقّاً . ويعلم حق العلم أنه تعالى هو الفاعل الأوحد ، وانقطع بنورعلمه عن جميع الأسباب .

أما الإنسان العادي فضعيف أمام الأسباب ، ويصعب عليه تجاهلها كليّاً ، والتوجه إلى مسبب الأسباب .

إلٰهي أنا العاجر ، فبحق هذا الإمام المضطر إليك حقّاً ، وقال قلبه يا أالله فبحقه يا مسبب الأسباب إقض لي حاجتي .

نحن قد لجأنا إليك ظاهراً ، فنسألك بحق الإمام (عج) الذي لجأ إليك ظاهراً وباطناً أن تتقبل منا إلتجاءنا الناقص إليك ، وبحق شفيعنا الحق الحجة ابن الحسن (عج) استجب لدعائنا .

نعم ، ليكن لدى المؤمن يقين قاطع بأن الله سبحانه وتعالى هو منبع الفضل والكرم المطلق . وليواصل طرق أبوابه ، حتى ولو لم تتوفر في دعائه كافة الشروط .

الفصل الثالث

باب ، الله تعالى ليس بحاجب أو مانع :

« واعلم أن الذي بيده خزائن السماوات والأرض ، قد أمرك بالدعاء وتكفل لك الإجابة ، وأمرك أن تسأله فيعطيك ، وتسترحمه فيرحمك ، ولم يجعل بينك وبينه من يحجبه عنك ، ولم يلجئك إلى من يشفعك إليه ، ولم يمنعك إن أسأت من التوبة ، ولم يعيّرك بالإنابة » .

من خلاصة الأبحاث السابقة حول الدعاء توصلنا إلى أن للدعاء ركنين هامين :

الركن الأول : يتمثل بالرجاء الحقيقي الصائب ، والنابع عن حاجةٍ حقيقيةٍ ، وليس عن هوى في نفس العبد .

أما الركن الثاني : فيتجسد في الإنقطاع إلى الله تعالى ، والتوجه الكلّيّ للقلب نحو الخالق ـ جلّ جلاله ـ .

ومتى ما توفر هذان الشرطان في الدعاء ، فانه سيستجاب حتماً ، وبدون

الإعتماد على واسطةٍ أو وسيلةٍ أخرى .

قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام : « ولم يجعل بينك وبينه من يحجبه عنك » فسبحانه وتعالى كريم ، وقد فتح أبواب رحمته لعبده على مصراعيها . وعبدالله لا يحتاج في الواقع إلى اللجوء إلى واسطةٍ أو وسيلةٍ ثانيةٍ ، إذ ليس هناك حجابٌ أو مانعٌ بينه وبين الله تعالى « ولم يلجئك إلى من يشفعك إليه » فالله رؤوفٌ رحيمٌ بعبده إلى الحد الذي لا يشعر فيه الإنسان بحاجةٍ إلى شفيعٍ يشفعه إليه أو التوسل بغير الله سبحانه وتعالى ، فهو مع عبده ومتصل به ﴿**وهو معكم أينما كنتم**﴾ .

أقرب مني إلى نفسي :

ويا للعجب ، فاني عنه بعيد ، فالعبد هو الذي يبتعد عن ربّه الذي هو أقرب إليه من حبل الوريد . ولا يوجد حاجب أو حارس على باب الله ، كما لدى الملوك وسلاطين هذا العالم الفاني .

لقد اعتاد الناس على أخذ الإذن من حاجبٍ أو حارس السلطان قبل الدخول عليه . ولا يوجد مثل هذا الحاجب على باب الباري تعالى ؛ إذ هو مفتوح للجميع « الحمد لله الذي لا يهتك حجابه ولا يغلق بابه » .

وكما أسلفنا فباب الله ـ جل جلاله ـ مفتوحٌ على مصراعيه للجميع ، وعلى الإنسان أن يعرف كيف يطرقه ، وكيف يدعو ، وكيف يشعر بأن الله قريبٌ منه ، وأنه في حاجةٍ ماسةٍ إليه فقط ، وليس إلى غيره ؛ فان توفرت كل هذه الشروط ، فكلمة « يا ألله » وحدها كافية .

غفران الكنيسة للخطيئة والذنوب محض خرافة :

قد يطرح السؤال التالي : أليس من المسلمات في ديننا الحنيف ومذهبنا شفاعة آل محمد عليهم السلام ؟ وأليس من الأمور البديهية لدينا التوسل

بآل محمد عليه السلام واتخاذهم كوسيلة لنا ، واعتبار شفاعتهم لازمة لنا يوم القيامة ؟ فكيف يقول الإمام علي عليه السلام : « إن الله لم يلجئك إلى من يشفع لك لديه » ؟

كيف يمكن حل هذه المشكلة ؟

الجواب على هذا السؤال يستلزم العودة إلى العبارة الأولى ، التي قالها الإمام علي عليه السلام : « لم يجعل بينك وبينه من يجبه عنك » فالله سبحانه وتعالى لم يجعل بينه وبين عبده حاجب أو حارس أو واسطة لكي لا يجبر الإنسان عند التوسل إلى الله على اللجوء إلى واسطةٍ ما تهديه السبيل إلى ربّه .

وكانت هذه إشارة منه إلى العادات والتقاليد الكنيسية الخاطئة التي توجب على كلّ نصراني يرتكب ذنباً أن يعترف بها للراهب المكلف بسماع الإعترافات ، مع دفع مبلغ معين من النقود للحصول على الغفران من الكنيسة . وهذا خطأ فاحش ، دأبت الكنيسة النصرانية على ممارسته . وحاشا الله أن يحصر سبيل التوبة إليه بيد بشر مثلنا .

التوبة أفضل شفيع :

ليس هناك أية فاصلة أو مسافة تبعد الإنسان عن ربّه ، فلماذا نصرّ على إطالة الطريق إليه تعالى ؟ فالإنسان في حلّ عن البحث عن واسطةٍ أو إنسانٍ آخر بينه وبين ربّه الذي هو أقرب إليه من حبل الوريد ، فليس للإنسان أي شفيع ، وشفاعته الوحيدة تتلخص في التوبة النصوح . والله سبحانه وتعالى يوسع على عبده لكي لا يحتاج إلى غيره . قال أمير المؤمنين عليه السلام : « لا شفيع أنجح من التوبة » . وبعبارةٍ أخرى فان الإنسان يجب أن يشعر بندم حقيقي صادر من أعماق نفسه ليتوب إلى الله تعالى ، إذ لا ينفعه سواه .

الشفاعة لقبول الدعاء والتوبة :

وليس هناك أي شك في هذه المسألة . وقد سبق القول : إنه ليس هناك حجابٌ بين الربّ وعبده . والسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو حيث أن قلب العبد موزع على ألف سبب وسبب ، فكيف يستطيع الإنقطاع إلى الله ؟

إن توجه العبد ، وحضور القلب ضروري للغاية ، ذلك لأن القلب المدنس بحب الدنيا والشهوات ، والأسباب ، يعجز عن قول : « يا أله » من أعمق الأعماق ، ومن صميم وجوده . وهنا فليس للعبد من سبيل آخر سوى التوسل ببركة هذه الأنوار ، ليصل إلى حالة الإنقطاع الكامل إلى الله .

إذن : الطريق إلى الله موجود ، وممهد ، إلّا أن الإنسان البائس يعجز عن بلوغ الإنقطاع التام في الدعاء ، عندما يقوم العبد بزيارة ضريح الإمام الرضا عليه السلام ، هناك أملٌ في التوصل إلى حالة الإنقطاع . وتتكرر المحاولة قد تساعده على بلوغها أينما كان ، حيث أن المطلوب فقط هو الإنفصال عن الأسباب ، والإنقطاع التام إليه تعالى .

سموّ الروح عند ضريح المعصوم :

القول بأن الدعاء عند ضريح الإمام المعصوم مستجابٌ ، ناجم عن حالة السموّ الروحي التي تسيطر على الإنسان أثناء حالة الدعاء ، وفي الحقيقة ، فان جلال المكان وقداسته تضاعف من حالة السموّ الروحي والعقلي والفطري لدى الإنسان ، بحيث أن قيمة كلمة ـ يا أله ـ التي يردّدها عند قبر الإمام الرضا عليه السلام تفوق مئة مرة قيمتها في مكانٍ آخر .

التربة الحسينية وقبول الصلاة :

كل من يؤدي الصلاة ويسجد على التربة الحسينية ، ترفع لأجله الأستار التي تحجب قبول أعماله وخلوص نية قلبه . ولذلك فان التربة الحسينية تختلف

عن كل الترب الأخرى . كما لا يقصد من القول بالتوسل بآل محمد عليهم السلام ضروري عند الدعاء والتوبة بأن باب الله مسدود ، وباب آل محمد عليهم السلام مفتوح ، فالمقصود من ذلك هو أنه ببركتهم عليهم السلام يتمكن الإنسان من بلوغ حالة التوبة الخالصة ، ومن ثَمَّ يكون أهلاً للدعاء .

الدعاء عند قبر الإمام الحسين عليه السلام طلباً للشفاء :

مرض الإمام الهادي عليه السلام فأوعز إلى أبي هاشم الجعفري أن ابعث من يدعو لي عند قبر الإمام الحسين عليه السلام لأتعافى ، فقال أبو هاشم الجعفري : « يا مولاي أنت نفسك إمام ، فكيف تبعث من يدعو لك في كربلاء ؟ » .

فأجابه الإمام الهادي عليه السلام : « إن الله يحب الدعاء عند قبر الإمام الحسين عليه السلام » نعم عند قبر الإمام الحسين عليه السلام يلين القلب وتصفّى النية ، وينقطع الإنسان إلى الله تعالى .

وعلى هذا يمكن القول بأن التوسل بآل محمد عليهم السلام ضروري لبلوغ مرحلة الإنقطاع التام إلى الله . ولا يستطيع العبد الوصول إلى هذه المرحلة بمفرده ومن دون التوسل بهم عليهم السلام .

الصلوات توجب الإجابة :

جاء في أصول الكافي بأن الدعاء معلقٌ بذكر الصلوات على محمدٍ وآل محمدٍ ، فطلب الصلاة والرحمة لمحمد وآله يعتبر كواسطة وتشفع بقبول الدعاء .

أما فيما يتعلق بالشفاعة بحدّ ذاتها ، فصحيح أن الله سبحانه وتعالى قد أمرنا بعدم اتخاذ شفيع لنا من بين مخلوقاته ، وصحيح ـ أيضاً ـ أنه قال : إن باب التوبة مفتوحٌ للجميع ، إلاّ أن طريق التوبة شائكٌ ، وطويلٌ لأنها تستوجب

ندمّاً حقيقيّاً ، واحتراق القلب والوجدان بنيران هذا الندم لتتطهر الذات الإنسانية من أدرانها الدنيوية وتقبل توبتها .

ولأن سبيل التوبة صعبٌ ، فان العبد يعجز عادة عن التوصل إلى حالة التوبة الحقيقية التي تتطهر فيها نفسه من كل الخطايا والذنوب . ومن ثَمَّ فان عباد الرحمان يتوسلون بالشفيع لحاجتهم الماسة إلى مغفرة الله ، أما الله ـ جل جلاله ـ فهو غني عن هذا الشفيع . فكيف تقبل توبة العبد من دون التوسل بآل البيت عليهم السلام ، فهم الذين يلبون نداءنا ، وتوسلنا إن سقطنا أو نهضنا على السواء .

لم نخلق تعساء :

نعم إنه لن يلجئنا إلى شفيعٍ ، وإن باب التوبة مفتوحٌ أمام كلّ العباد إلّا أن الإنسان في حاجةٍ ماسةٍ إلى عونٍ روحيٍّ لطرد الشياطين في ساعة الموت . ومن أبواب الألطاف الإلٰهية العظيمة شفاعة أهل البيت عليهم السلام في الدنيا والآخرة . فهم من أبواب الإفضال والألطاف الإلٰهية على الإنسان .

منح الله سبحانه وتعالى آل البيت عليهم السلام قدرة مساعدة العبد ، وفي كلّ الحالات التي يتعرض لها ، خلال حياته ، وحتى الساعة الأخيرة منها . ولعجز العبد غالباً عن بلوغ مرحلة الدعاء الحقيقي ، فان دعاءه مستجابٌ ببركتهم وفضلهم .

الصلاح في الدعاء والصدقة :

قلنا : إن الدعاء المطابق لمصلحة الإنسان سوف يستجاب ، أما المناقض لها ، فلن يستجاب ، فما فائدة الدعاء إذن . ؟ فسواء أدعونا أم لم ندع فان ما فيه مصلحتنا فقط سيتحقق .

للإجابة على هذا السؤال ، يجب القول بأن عالم الوجود يرتبط بأسباب

وعلل مختلفة ، ووقوع أمر يستلزم تظافر هذه الأسباب والعلل . ومن جملة هذه الأسباب الدعاء . فصلاح ومصلحة الإنسان يتحققا بالدعاء والصدقة ، رغم أن انتفاء المصلحة يعني عدم الإستجابة . والأمر كذلك بالنسبة للصدقة ، فمن شرط تحقق صلاح الإنسان إعطاء الصدقة « داووا مرضاكم بالصدقة » .

ومن المأثور أيضاً : إن الدعاء والصدقة يطيلان العمر ، فقد يحل الأجل المحتوم أحياناً إلّا أن الصدقة وزيادة الدعاء قد يؤخران وقوعه .

وعلى هذا الأساس ، فان شفاء الإنسان من مرضه محتمل ، وذلك ببركة الدعاء والصدقة ، والدعاء والصدقة بحدّ ذاتهما يحققان مصلحة وصلاح العبد .

الدعاء للتعبد وليس لتحقيق مصلحة :

أمر الله تعالى في القرآن الكريم عباده أن ﴿**ادعوني أستجب لكم**﴾ فالدعاء إذن هو أحد موارد الأمر الشرعي ، فليس للعبد سوى أن يتعبد ويدعو ولا شأن له في المصلحة التي سيحققها له هذا الدعاء ؛ فالدعاء هو جزءٌ لا يتجزأ من العبادة . ولو أمعنا النظر في معنى الدعاء وحقيقة الدعاء فسوف تزول كل الشبهات المحتملة . فالمؤمن الحق على يقين تام من حاجته إلى خالقه ، وفي جميع الحالات .

أمّا الذين لم يصلوا إلى هذه الدرجة من اليقين ، فدعاؤهم يخص غرفة العمليات الجراحية فقط .

وعلى هذا فان أهل المعرفة واليقين فقط يعلمون بأن الكل مضطرٌ إلى الله ، وفي كلّ لحظةٍ ، وإن الله سبحانه وتعالى يمد هؤلاء كلهم بفيضه المستفيض لاستمرار الحياة الإنسانية .

العناية الإلٰهية ووساوس الشيطان :

نِعمَ الخالق على المخلوق لا تقدر ولا تحصى ، ولا يمكن تحديد مدى حاجة العبد إلى خالقه ـ أيضاً ـ وعلى هذا يجب على المؤمن أن يردّد « بحول الله وقوته » بكلّ خطوةٍ يخطوها ، فكونه شاباً ومتمتعاً بالصحة والعافية لا ينفي حاجته إلى الله سبحانه وتعالى .

ولو استطاع الإنسان أن ينفذ إلى عالم الروح لوجد عجباً ، ولأدرك مدى احتياجه إلى الخالق ـ عزّ وجلّ ـ ليحفظ لنا إيماننا من وسوسة الشياطين وهجماتها . ألم يدرك الإنسان حتى الآن ما فعلت الشياطين بقلوب البشر ، وكم وسوست لهم وحرفتهم عن السبيل القويم ؟

دعاء دخول المسجد والخشوع لله :

حول كيفية دخول المسجد ، قال الإمام الصادق عليه السلام : عندما تصل إلى المسجد قل « يا محسن قد أتاك المسيء أللّهم أنا ضيفك » فالمؤمن الذي يريد دخول مسجد ما عليه أن يخاطب ربّه بالقول : يا ربّي أنا ضيفك ، والشياطين تحيط بقلبي . ويضيف الإمام الصادق عليه السلام : ثم قل ﴿**أمن يجيب المضطر**﴾ .

وضّح الإمام عليه السلام كيف أن الإنسان وعند دخوله للمسجد يجب أن يعترف بضعفه واضطراره إلى الله ، بالدعاء والقول « إلٰهي إني أسير هوى نفسي ووساوس الشياطين » .

ومتى ما صدق وخلصت نية العبد فسوف ينجيه الله من وسوسة الشياطين .

الحاجة الدائمة والدعاء الدائم :

على أيّة حالٍ كان ، يحتاج الإنسان إحتياجاً ماسّاً إلى الباري ـ عزّ وجلّ ـ

ومن ثَمَّ عليه أن يدعوه في كلّ لحظةٍ . فطالما يعترف الإنسان بعجزه فيجب أن يتوجه إليه بالدعاء بشكلٍ مستمرٍ .

والإنسان يجب أن يكون على يقينٍ تامٍ من إجابة دعائه . ومتى ما كانت له مصلحة في ذلك ﴿أجيب دعوة الداعي إذا دعاني﴾ .

وفي هذا ـ أيضاً ـ إجابة على الشبهة القائلة بعدم وجود تناقض بين الدعاء والعبودية . فالدعاء هو روحُ العبادة « الدعاء مخ العبادة » ومن ثَمَّ فهو لا يتنافى مع التسليم والرضا بالأمر الإلٰهي . فدعاء العبد لا يكون بهدف الإعتراض على القضاء والقدر الإلٰهي بل هو تعبير عن مدى عجزه وتعبده .

التسليم المطلق لإرادة الله :

إن التساؤلات التي تتنافى والعبودية الحقة ، تختفي لدى المؤمن . فهو قد أُمر وكلّف بالدعاء وعليه أن يفعل ذلك . كقول الشاعر :

أعرف فريقاً من الأولياء أفواههم صامتة عن الدعاء

ومن المحتمل أن يكون الشاعر قد قصد من قوله« أولياء الله » أولئك الذين بلغوا مرحلة اليقين التام ، والتسليم المطلق لإرادة الحق ، بحيث يعجزون عن الدعاء ويصبحون كالميت المسجى أمام الكفان . عظام وكبار الرجال قد يصلون أحياناً إلى حالة التسليم المطلق لإرادة الله تعالى . وخير مثال على ذلك النبي إبراهيم عليه السلام . حين ألقاه الكفار من قومه في النار ، حضره جبرائيل عليه السلام ، وقال له : هل لك حاجة ؟

فأجاب النبي إبراهيم عليه السلام : لا أحتاجك أنت .

فقال جبرائيل عليه السلام : أطلب ممن تشاء !

فرد إبراهيم عليه السلام : « حسبي عن سؤالي علمه بحالي » .

الفصل الرابع

الأمر يتنافى مع الدعاء :

﴿وقال ربّكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ .

هذه الآية تمثل الأمر الإلٰهي بالدعاء . فعندما يتأخر سقوط المطر ـ مثلاً ـ على المؤمنين الاستزادة من الدعاء ، والإكثار من دعاء الإستسقاء الذي أمر به الله تعالى . وفي الحقيقة هناك مطالب كثيرة وهامّة تتعلق بالدعاء يجب أن نشير إليها .

فالمطلب الأول ـ هو ضرورة فهم وإدراك حقيقة الدعاء من قِبَل المؤمن ، وأن يبدو بمظهر العاجز والمحتاج إلى الرحمة والعناية الإلٰهية ، وليس كمن يصدر أمراً أو يستهدف مصلحة شخصية بحتة . وعلى وجه الدقة على العبد التشبه بالمستجدي الشحّاذ ، وهو يدعو ربّه ، ولا يأمر بتنفيذ رغباته أو يقترح على الله سبحانه وتعالى مثلاً أن يحل عقدة على الوجه الذي يرغبه هو ، فأي

إقتراح سيكون بمثابة إصدار أوامر وتعليمات ، وهذا ما ينافي ويناقض كليّاً جوهر الدعاء .

إذن في حالة الدعاء على الإنسان أن يظهر بمظهر العابد المحتاج الفقير إلى الله ، وأن يكون على اطمئنان كامل من أن الله يدير شؤون عباده على أفضل وجه ، ويمنّ عليهم بما فيه مصلحتهم . فالإنسان يعجز عن تقييم بعض المسائل . فهطول المطر أو عدم هطوله ليس من اختصاصه . إنما عليه أن يدعو ، لأن الله قد أمره بالدعاء ، ولو لم يأمر بذلك لوجب عليه إغلاق فاهه ، إلّا أنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ قد أمر عباده بالدعاء ﴿**إدعوني أستجب لكم**﴾ .

إن عدم سقوط الأمطار قد يسفر عن وقائع وفجائع كثيرة ، والسبب يتلخص في ذنوب وخطايا عباد الله وكفرهم بنعمه .

وما يدرينا ، فلربما ، وببركة دعائنا يتداركنا الله بعنايته ويشملنا برحمته الإلٰهية ، فلا يمكن القول بحتمية الأمور . وقد تتحقق لنا ببركة الدعاء .

حضور القلب كشرط للدعاء :

من أهم المطالب الخاصة بالدعاء هو أن يكون الدعاء صادراً عن القلب واللسان بشكلٍ متناغمٍ ومنسجمٍ ، وليس فقط تحريك اللسان بألفاظٍ لا تعبّر عن حاجة القلب الحقيقية . إذن : فالدعاء يكون متوفر الشروط متى ما كانت الألفاظ تعبيراً حقيقياً عن رغبات القلب . فالدعاء هو الطلب ، والطلب هو شأن قلبي بحت ، فان لم يكن للقلب دور في هذه العملية فمن الطبيعي أن لا يكون هناك طلب حقيقي . إذ لا يستطيع اللسان التعبير عن طلب لا يشعر به القلب حقّاً . فعلى سبيل المثال : إذا شعر شخص بالعطش ، فانه يبادر إلى إظهار رغبته هذه بالقول : إنني عطشان فاللسان هنا قد عبّر عما في القلب . أما إذا طلب النائم شيئاً ، وذكره لسانه فان هذا الطلب لن يهتم به أحد .

إدع بقلبٍ حاضرٍ :

حضور القلب خلال الدعاء على درجاتٍ عديدةٍ يجب أن يمر بها الإنسان لتتوحد لديه الهموم ، ومتى ما بلغ الإنسان هذه المرحلة من حضور القلب وتوحدة الهموم ، فان دعاءه سيستجاب حتماً بإذن الله .

وفي كتاب الكافي فصل خاص يدور حول حضور القلب في الدعاء ، حيث ذكر عدة روايات قيلت في هذا المجال . ومن هذه الروايات ، إن الإمام الصادق عليه السلام قال : « إن الله تعالى لا يستجيب دعاء قلب لاهٍ ساهٍ » .

وعن زين العابدين عليه السلام أيضاً إنه قال : « إذا دعا أحدكم لميتٍ ، فلا يدعو له وقلبه لاهٍ ، ولكن فليجتهد في الدعاء » .

مجالس العزاء :

قال العلاّمة المجلسي في شرح هذا الموضوع : من الممكن أن يكون هذا الحديث إشارة إلى ما هو متعارف عليه بأزماننا في مجالس العزاء ، فعندما يموت شخصٌ يقام له مجلس عزاء لاستقبال المعزين ، وترديد كلمات المواساة والعزاء « كرحمة الله عليه » لن تجلب أية رحمة للميت إن لم تعكس رغبة حقيقية صادرة عن قلب المعزي بأن يرحمه الله ، فلا يكفي إرسال الرحمات اللفظية إلى الميت فقط ، بل أن يتمنى القلب ذلك حقّاً .

وهل إن التعزية الآنفة الذكر ـ يرحمه الله ـ لا تختلف عن تمنيات الإنسان القلبية بتحقيق ربح قدرة مئة ألف دينار ، في إحدى المعاملات التجارية مثلاً ؟

طلب الرحمة للميت صادر من القلب :

حديث العلاّمة المجلسي يعود إلى ٣٠٠ عاماً مضت ، ترى ماذا سيقول لو عاد اليوم ، ورأى مجالس العزاء التي يقيمها الناس هذه الأيام ؟

سرادق العزاء التي تقام هذه الأيام باهظة التكاليف ، حيث يهرع أهل الميت إلى استئجار المقاعد والسجاد ، ومكبرات الصوت ، وليت كل هذه المراسم تؤثر على عاقبة المتوفى . وفي الحقيقة فان مراسم العزاء اليوم تجسد حقيقة ولع الناس بالتظاهر والتفاخر أمام الناس .

فالقلوب مقبلة على حبّ الدنيا ، وايثار الذات وحبها ، والأنانية البشعة . فهل هناك يا ترى قلب صادق يطلب الرحمة للميت وبكل حرارة ؟

حديث أبو ذر مع ابنه وهو في قبره :

عندما توفي (ذر) جلس أبوه على قبره يبكي ، وقال : لا أبكي عليك لأنك قد مت ، فليس له أملٌ في هذه الدنيا سوى التزود منها للسفر ، وإلا لتمنيت أن أموت معك . وواصل أبو ذر بكاءه وهو يقول : أبكي عليك لأنني لا أعلم إن كنت قد أجبت منكر ونكير أم لا ؟

نعم . لقد كان أبو ذر يشعر بلوعة شديدة على فقدان ابنه ، لأنه أب ، وليس لأنه فقد سنده وقوة قلبه . فهو يشفق على ابنه ، ويشعر باضطراب شديد لأنه يجهل مكان ابنه في البرزخ . وهل ما زال الإيمان يملأ جوانحه لينقذه وينجيه من كلّ ظلمةٍ في ذلك العالم أم لا ؟ لقد كان أبو ذر يبكي ويدعو الله أن يشمل ابنه برحمته وعنايته .

الاشفاق على النفس :

التلاعب بالألفاظ لا ينفع الإنسان إذ أن على القلب أن يعمل « إن الله ينظر إلى قلوبكم لا إلى صوركم » فان لم يخشع القلب حقّاً ، فليس لحركة الجسم أثر ما أو في أحسن التقادير ، فان أثرها يكون ضعيفاً .

فالعبد لا ينبغي أن ينتظر من الآخرين أن يدعوا له من صميم قلوبهم بعد رحيله إلى العالم الآخر ، ويجب أن يفكر في نفسه حقّاً . فمن المأثور أن هناك

أموراً معينةً ستحدث في آخر الزمان ، ومنها أن الأموات لن يستفيدوا شيئاً من وجود الأحياء . وبعبارة أدق : فلن يقوم الأحياء في آخر الزمان بالتصدق عن الأموات والترحم عليهم .

ومن المؤكد أن للدعاء أثر كبير ، ولكن أين هو هذا الدعاء الصادق النابع من قلب خاشع ؟ لقد نهى الإمام عليه السلام المؤمن عن الدعاء إن لم يكن صادراً من صميم القلب لأنه محض هراء .

تواضع التوسلات :

كبار المؤمنين وعظمائهم يخشون دوماً من عواقب أعمالهم حتى ولو كانت صالحة . والسابقون الصالحون كانوا يخشون من أعمالهم الصالحة وحسناتهم أكثر مما نخشى نحن اليوم عواقب خطايانا وذنوبنا .

وسبب شعور السابقين العظام بمثل هذا الشعور ، هو قلقهم وخوفهم من أن تكون أعمالهم ذات هدف ومحتوى غير حقيقي ، فيفضحون يوم القيامة .

للشيخ الشوشتري كلمة قيِّمة في هذا المجال . فبعد أن يذكر بعضاً من آثار وفوائد البكاء على الإمام الحسين عليه السلام والتوسل به ، يقول : « أملي ببركة هذه التوسلات إذا لم يكن فيها غرور أن يخرجنا الله من هذه الدنيا ونحن مؤمنون » .

نعم . قد يكون في التوسل أحياناً نوع من الغرور ؛ فأين خشوع القلب في هذا التوسل والدعاء ؟ وهل أن توسلاتنا قد صدرت من صميم قلوبنا أم لا ؟

في روايةٍ عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال : « الموجع لنا قلبه » ثم يقول : « لو تساقطت الدموع فهو أفضل » فالأصل هو « الموجع لنا قلبه » أي الذي يتألم لمصابنا .

التوسل لأغراض مادية :

ما قلناه سابقاً استهدف القضاء على غرور الإنسان والخروج به من الجهل المركب . قد نتساءل من منّا يبكي بكاءً خالصاً نابعاً من القلب ؟ ألا نتوسل أحياناً بأبي الفضل العباس من أجل المال ؟ فعندما نقول : يا عباس . ألا نقصد في الواقع المال . وبعبارة أدق : أين النقود والثروة ؟ وهل نشعر حقّاً بأسى وألم على أبي الفضل العباس . على المؤمنين أن يتذكروا أولاً مصيبة أهل البيت لتشعر قلوبهم بألم حقيقي ، وبعد ذلك تفيض الدموع من أعينهم ؛ فحزن القلب يأتي في المرحلة الأولى ، ثم تدمع العيون وتتساقط على الخدود كالإنسان الذي يفقد طفله ، فهو لا يتظاهر بالحزن ، لأنه نابعٌ من صميم قلبه .

ونحن نقصد هنا إثبات ما قاله الشيخ الشوشتري من أن توسلاتنا يجب أن تتسم بالتواضع وتخلد من كلّ غرورٍ ، وتكبر ﴿**يوم ينفع الصادقين صدقهم**﴾ .

الدعاء بتضرعٍ وجديةٍ :

عن كتاب « عدة الداعي » : أن أوحى الله إلى عيسى ابن مريم » « إذا دعوتني فادعني متضرعاً وهمك همّاً واحداً ، ومتى دعوتني كذلك أجبتك » .

وجاء في القرآن الكريم ﴿**واذكر ربّك في نفسك تضرعاً وخيفةً ودون الجهر من القول**﴾[1] فعلى القلب أن يشعر بخشوعٍ وخضوعٍ مطلقٍ عندما يطرق أبواب الرحمة الإلهية ، كما يُظهر أهل الدنيا العجز والضعف أمام ذوي الجاه والسلطان .

أما معنى « أن يكون همك همّاً واحداً » فهو أن يكون همك الوحيد هو

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ٢٠٥ .

إجابة دعائك . يقول الله سبحانه وتعالى : عندما تدعوني بهذا الشكل أستجيب لك .

قبول الصلاة يعتمد على حضور القلب :

إن قبول كافة العبادات يعتمد على مدى حضور القلب عند تأديتها ، ولا قيمة لها بدون ذلك . وكذلك فيما يتعلق بالصلاة ، فما يقبل منها يعتمد على حضور قلب المصلي خلال أدائها . فالصلاة التي تنقل المؤمن إلى عداد المصلين وتشمله ببركتها هي التي تؤدَّى بقلبٍ حاضرٍ وخاشعٍ . ويقال : إن نصف الصلاة أو ثلثها أو حتى عشرها التي تُصلى بقلبٍ حاضرٍ ، هي مقبولة على اعتبار ﴿**من جاء بالحسنة فله عَشر أمثالها**﴾ . وعلى هذا ، فليؤد المصلي عُشر صلاته على الأقل بقلبٍ حاضرٍ ، فالعبودية الحقة لله تعالى .

تعمير المنارة عند الصلاة :

عن الحديث الشريف الذي يقول : كل من يصلي ركعتين بقلبٍ حاضرٍ خاشعٍ تكتب له الجنة . ذكر المرحوم الجزائري ـ في الأنوار النعمانية : أن شخصاً قد سمع بهذا الحديث في الكوفة ، فقال في نفسه : ليس هذا بعسلٍ صعبٍ . وعندما فرغ المسجد من الناس ، استعدّ للصلاة بقلبٍ حاضرٍ ، ولما رفع يده بالتكبير سقطت عيناه على شرخ في منارة المسجد ، . فحدّث نفسه قائلاً : « ليس من الصحيح أن يكون هناك شرخ في منارة مسجد عظيم كذا » وأخذ يفكر في ضرورة استدعاء البناء الفلاني ، وكيفية جمع تكاليف البناء وغيرها من المسائل الخاصة باصلاح منارة المسجد . وعندما ختم الصلاة كان قد أنهى تعمير المنارة في مخيلته . وهنا ضرب على رأسه بشدةٍ ، وهو يتساءل عن مدى حضور قلبه في صلاة ركعتين فقط .

التعود على الصلاة بقلبٍ حاضرٍ :

من الصعب جـدّاً ـ على كلّ إنسـانٍ ـ السيطرة على نفسـه إلاّ إذا استجـار بلطف الله تعالى وعونه . والإنسان في حاجةٍ إلى تـدريبٍ مستمرٍ للنفس لتمتلىء جوانحه بالتقوى والخشوع والخشية من الله سبحانه وتعالى .

ويستطيع العبد أن يبلغ هذه المرحلة تدريجيـاً ، إبتداء من حضـور القلب لعُشر الصلاة فقط ، ثم ثلثها ، ثم نصفها ، وهكذا .

ندعو الله تعالى أن يمنّ على الجميع برحمته الواسعة ، ويـرفع البـلاء عن بلاد الإسلام والمسلمين ، ويرسل علينا أمطار رحمته .

يـا من منك الـدعاء ومنـك الإجـابـة منـك الأمـان ومنـك الـمخـافـة

إلٰهي تفضل علينا بحالة الدعاء الحقيقي ، واشملنا بلطفك وعطفك .

عدم الدعاء تكبّر عن العبادة :

﴿وقـال ربّكم ادعـوني أستجب لكم إن الـذين يستكبـرون عن عبـادتي سيـدخلون جهنم داخرين﴾ . المتكبـرون هم أولئك الـذين يـرون أنفسهم غيـر محتاجين إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ ولا يعرضوا حاجتهم عليـه ، ومن ثَمَّ يتكبرون عن الدعاء الذي هو أحد العبادات . يقـول سبحانـه وتعالى لأولئـك المتكبرين إنهم سيدخلون جهنم أذلاء .

يقول الإمام السجاد عليه السلام في الصحيفة السجـادية : « ربي الـدعاء لك عبادة وتركه تكبر » . فالتكبر إذن : هو شعور الإنسان باستغنائـه عن الحق ، ومن ثَمَّ ، فهو تكبّر على الله ، وكـل المتكبرين سيلتحقـون بفرعـون وأتباعـه من الفراعنة في جهنم .

غض النظر عن الأسباب :

أؤكد مرةً أخرى أن الدعاء هو من المواضيع الهامّة جدّاً ﴿**إدعوا ربّكم تضرعاً وخيفة**﴾ . لذلك من المناسب جدّاً ـ في هذا المجال ـ الإشارة إلى شروط الدعاء ، فكما سبق القول يتضمن الشرط الأول طلب الحاجة من صميم القلب وليس ذكرها على اللسان فقط .

أما الشرط الثاني ـ فهو التوجه إلى الله ، لا إلى الأسباب . فقلباً يقول المريض : إن طبيبي حاذقٌ وسوف أحظى بالشفاء على يديه ، بينما يردّد لسانه « أللّهمّ امنحني العافية والشفاء » وقد عرّفت الآية القرآنية الشريفة الدعاء بأنه عبادة ، فمتى ما تيقن الإنسان جيداً بأنه ليس سوى عبد لله ، فان دعاءه سيكون صادراً عن شعورٍ بعبوديةٍ مطلقةٍ للخالق ـ عزّ وجلّ ـ ﴿**وإذا سألك عبادي عني**﴾[1] وهذه هي حقيقة العبادة .

الإعتراف بعجز النفس تمهيد لحالة الدعاء :

والعبودية على نوعين : مجازية وحقيقية ، والعبودية المجازية هي الشائعة بين أفراد البشر . أما العبودية الحقيقية فهي تلك العبودية الموجودة بين الخالق ومخلوقه . ﴿**يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد**﴾[2] ﴿**إن كل من في السماوات والأرض إلاّ آتي الرحمٰن عبداً**﴾[3] .

فذات الإنسان وصفاته وأفعاله ووجوده هي ملكٌ مطلقٌ لله سبحانه وتعالى . والله قيم على عبده ، وكل الأسباب الظاهرية والخفية ملك لله تعالى . وهو القادر على تحديد الصالح للإنسان . فان عجزت الذات الإنسانية عن

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٨٦ .

(٢) سورة فاطر ، الآية : ١٥ .

(٣) سورة مريم ، الآية : ٩٣ .

إدراك عمق هذه المعاني ، فكيف يمكن لها أن تصل إلى مرحلة الدعاء الحقيقي . فكل ذي مقام ـ سواء كان ملكاً أو إنساناً أو حيواناً ـ عاجز عن التصرف بذاته .

وعدم تيقن الإنسان من هذه الحقائق إنما يعني عجزه عن الدعاء بقلبٍ خاشعٍ وخاضعٍ ، وإن دعاءه سيكون أجوفاً ومزيفاً .

فالكل ملكٌ مطلقٌ للباري ـ عزّ وجلّ ـ أعضاء الإنسان وجوارحه وعلاقاته كلها تخضع خضوعاً كليّاً له تعالى **﴿لله ملك السماوات والأرض﴾**[1] **﴿لله ما في السماوات وما في الأرض﴾**[2] .

الدعاء الحقيقي عاقبته المعرفة :

كل ما لدى الإنسان من قوةٍ وفكرٍ ، واقتدارٍ هي عطاء عادية من الله تعالى . ولا تصدر الأعمال عن الإنسان إلاّ بإذن منه سبحانه وتعالى . وكلّ من لم يدرك ، حتى الآن بأن الجميع فقراء إلى الله ، وعبيد له لا يمكن أن يصل إلى مرحلة الدعاء الحقيقي . فالكلّ محتاجٌ إلى الله . والله هو الغنيُّ المطلقُ . فان اجتمع الناس على أن ينفعوك بما لم يكتبه الله لك لم يستطيعوا . وبالعكس ، فان اجتمع الناس على أن يسلبوا منك خيراً كتبه الله لك أخفقوا . **﴿إن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلاّ هو . وإن يردك بخير فلا رادّ لفضله﴾** [3] .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٨٩ . وسورة المائدة ، الآية : ١٨ و١٢٠ وغيرها كثير .
(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٤ وغيرها .
(٣) سورة يونس ، الآية : ١٠٧ .

الحاجة إلى دوام العافية :

يجب على كلّ إنسانٍ أن يشعر بحاجته المستمرة إلى الله تعالى ، وحتى في أبسط أموره ، واحتياجاته اليومية . وعليه أن يطلب حاجاته من ربّه ، ويدعوه إلى مساندته ورعايته وتوفيقه . فإذا كان الإنسان يدعو ربّه في أوقات المرض فقط ؛ فمن يضمن له سلامته وعافيته في أوقات الصحة « أسألك العافية ودوامها » فهو في حاجةٍ إلى العافية ودوامها ، لأنها من الممكن أن تزول ـ وفي لحظةٍ واحدةٍ ـ قد تشعر فجأةً بأنك لا تستطيع بلع اللقمة ، أو أصابك ألمٌ شديدٌ في ساقك يمنعك من السجود ، والركوع في الصلاة ؛ لذا على الإنسان أن يردّد ـ وفي كلّ لحظةٍ ـ أن « لا حول ولا قوة إلّا بالله » ولا يفعل ذلك فقط في أوقات المرض العصيبة .

عند المرض يزداد الشعور بالحاجة :

قيل : إنه إذا طرق شخصٌ أبواب الرحمة والعناية الإلٰهية لحاجةٍ يرجوها ، تجاب حاجته فوراً ، متى ما قال : يا الله . إلّا أن ملكاً سينادي : أين كنت قبل الآن ؟ ألم تكن محتاجاً ، وشعرت بهذه الحاجة الآن ؟ .

نعم إن الإنسان في حاجةٍ ماسةٍ إلى الله تعالى في عافيته ومرضه . وفي فرحه وتعاسته . هل ينسى الإنسان خالقه عندما تتكدس أمواله ، أم إن المال كان ربّه ؟ وقبل أن يرقد في المستشفى ، ألم يشعر بحاجةٍ إلى الله تعالى ؟ إن شعور الإنسان بالحاجة إلى الله ـ جلّ جلاله ـ يجب أن يكون موجوداً في كل الحالات ، وبدون تمييزٍ بين صحةٍ ومرضٍ ، ووفرة المال أو شحته .

وفي الحقيقة يجب على الجميع الإنتباه إلى هذا الخطأ الفادح ، فدعوته واجبة في كل الظروف والأحوال ، وعلينا أن نردّد دائماً « يا ألله اقض لي حاجتي » .

فالمال الذي لدى الإنسان لا يرفع عنه الحاجة كما في الأثرياء الذين يملكون أموالاً طائلةً ، إلّا أنها لم تنفعهم . فالغنى والمال والصحة والعافية ، وكلّ شيء هو عطاء من الله .

نبذ التكبر :

وخلاصة القول : من الضروري مراعاة توفر شرطين هامين في الدعاء الحقيقي :

الشرط الأول ـ يفترض وجوب صدور الطلب من صميم القلب والوجدان ، وأن يكون الهمّ واحداً .

أما الشرط الثاني ـ فهو الرجاء من الله فقط ، والطلب منه فقط ، وترك كلّ الأسباب الأخرى . فنحن الفقراء إلى الله ، وهو الغنيّ الحميد الذي يجيب دعوته في كلّ حالٍ . وحقيقة الدعاء تتلخص في روح التعبد والعبودية ، وإلا اعتبر تكبراً على الله .

فان تناسى الإنسان عجزه وفقره ، وشعر باستقلاله عن ربّه فسوف يتضاعف ويتنامى لديه شعور الغرور ، والتكبر على الله سبحانه ـ عزّ وجلّ ـ .

الفصل الخامس

مسؤولية العلماء الكبيرة :

« وتفضل على علمائنا بالزهد والنصيحة » .

في هذا الدعاء يرجو الله سبحانه ـ عزّ وجلّ ـ بأن يَمُنَّ على العلماء بالزهد والنصيحة . وفي الحقيقة إن الزهد والنصيحة غير موقوفان على العلماء فقط بل هما تكليف يقع على عاتق كل فرد . وسبب تركيز الدعاء الآنف الذكر على العلماء ، يعود إلى أن العلماء بالذات يجب أن يهتموا أكثر من غيرهم بهذا التكليف ، إذ هم سيحاسبون عليه أكثر من عموم الناس ؛ لاطلاعهم الواسع على الحقائق ، وعمق إدراكهم لها .

وبطبيعة الحال ، فان إتساع نطاق معرفتهم وإدراكهم يوسع من مجال وحدود مسؤولياتهم . وقد جاء في أصول « الكافي » : « في يوم القيامة يغفر للجاهل سبعين ذنباً ، ولا يغفر للعالم ذنباً واحداً » .

الزهد والنصيحة تكليفان إلآهيَّان هامّان :

إذا وجّه اللوم إلى الجاهل ، لتركه التكليف ، فان العالم سيستحق العقوبة ، لأنه تاركٌ له عن عمدٍ وعلمٍ مسبقٍ . قال الشاعر :

من اكتسب العلم فليسع للعمل فشنار قوم قبح فيه الصيني محرجا
والمكي في البطحاء راقداً .....

ولما كان الزهد والنصيحة تكليفان إلآهيَّان ، لعموم المسلمين ، فيجب فهم معناهما جيّداً . هل هما واجبان أم مستحبان ؟ أو في بعض الأحيان واجبان وفي أحيان أخرى مستحبان ؟ وفي أخبار أهل البيت ، نلاحظ إهتماماً كبيراً بهذه المسألة .

الهدف من الحياة :

لغوياً الزهد يعني عدم الرغبة . والزهيد هو الشيء الرخيص الثمن ، ولغويّاً هو الشيء الذي لا يبعث على الإهتمام ، وعدم الرغبة في الدنيا هو الزهد بالدنيا .

فهل الزهد واجبٌ أم مستحبٌ ؟ وهذه المسألة بالغة الدقة ، لذلك نذكر برهاناً معيناً :

ما هو الهدف من خلق الإنسان ؟ وما هو الهدف من إرسال الأنبياء ؟ وأساساً ما هو الهدف من خلق العالم والبشر ؟

فالحياة الأبدية الأزلية تبدأ بعد الموت . أما حياتنا على الأرض فهي مؤقتة ، وفانية ، وتعتبر بداية لطريقٍ طويلٍ ، على الإنسان أن يطويه ، وما حياتنا الدنيوية ـ في الواقع ـ إلا ضمان لحياتنا الخالدة بعد الموت . إذن : الهدف من خلق العالم هو الإنسان .

النسبة بين المتناهي واللامتناهي :

إذا كان الهدف من حياتنا هو أن نعيش فقط عدداً من السنين نقضيها في إشباع غرائزنا ، وإرضاء شهواتنا ، وأن تتناوب علينا الأحداث والأيام على هذه الصورة ، فان خلقنا ، ووجودنا هو محض عبث .

لم يخلق الباري ـ عزّ وجلّ ـ الإنسان ليقضي حياته على الأرض عبثاً ، وبدون هدف ، فقد خُلق هذا العالم وسُخر لضمان حياة الإنسان الأزلية ، ونسبة حياتنا على هذه الأرض إلى حياتنا ما بعد الموت كنسبة المتناهي إلى اللامتناهي .

وبعبارةٍ أخرى : لا يمكن مقارنة الحياة الدنيوية بالحياة الأزلية الخالدة .

فحتى لو عمّر الإنسان ألف عام ، فانها لا شيء قياساً بالخلود الأزلي . فبعد الموت ، هناك حياة أبدية ليس لها نهاية .

رسالة الأنبياء واحدة :

تتلخص رسالة جميع الأنبياء في أن « الله يدعو إلى دار السلام » .

أي إن الأنبياء إنما يدعون البشر إلى الآخرة ، وإلى لقاء الباري ـ عزّ وجلّ ـ إلى الحياة الأبدية . ولا يوجد هناك إختلاف بين رُسل الله ، فكلمتهم واحدة ودعوتهم واحدة . ورغم ذلك نجد أن اليهود يتحاملون على النصارى ، وإن كلاهما يتهجمان على الإسلام ، بينما توحدت رسالة كل الأنبياء ، واستهدفت دعوة الإنسان إلى هدفٍ واحدٍ .

لقد دعى موسى وعيسى ومحمد ـ صلى الله عليه وآله وعليهم إلى مبدأ واحدٍ ، ومعادٍ واحدٍ . **﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾**[1] . **﴿قل يا أهل الكتاب**

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٥ .

تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون﴾[1] .

الإستعداد لرحلة الآخرة :

مئة وأربعة وعشرون ألف نبي أكدوا جميعهم على ضرورة قطع الإنسان لكل أمل له في هذه الدنيا ، والتعلق بالآخرة ، فالدنيا ليست وطن الإنسان ولا يجب أن يَلقي مرساته فيها ، كما أنها ليست المحطة الأبدية له .

وعلى هذا الأساس على الإنسان أن يستغل أيامه المعدودات فيها ويتزود ويستعد لرحلة الآخر .

وبعبارةٍ أخرى : فقد جئنا إلى هذه الدنيا بهدف الاتجار والتزود للآخرة . فعندما يموت الإنسان لن يستطيع أن يقدم لنفسه ما ينفعها . ولشديد الأسف فان تعلق بني البشر الشديد بالدنيا يمنعهم من العمل لآخرتهم .

وفي الحقيقة إن القرآن الكريم يذمّ الدنيا كثيراً لتشجيع المسلمين على الزهد وعدم التعلق بها .

مقدار الزهد الواجب :

الزهد الذي يعني قطع كل تعلق وأمل لنا في هذه الدنيا ، والميل نحو الآخرة واجب على كلّ مكلفٍ . فمن الواجب أن يحب المسلم الحياة بعد الموت أكثر من حياته الفانية ، ويمنحها المزيد من الأهمية والأرجحية .

وبطبيعة الحال يجب معرفة الحد الواجب من الزهد على المسلم ، ذلك أن البعض لا يرى للزهد أي إعتبار . وذلك خطأٌ فاحشٌ . فالزهد واجبٌ .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٦٤ .

وعلى كلّ مسلمٍ أن يسعى إلى توطيد علاقته بالحياة الأخرى ، وأن يفكر بالجنة التي وعد الله بها المؤمنين ، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين . ومسرات الآخرة أفضل من كل ملذات الدنيا ومسراتها .

موسيقى وأنغام الجنة :

دخل إعرابي على الرسول صلى الله عليه وآله وقال : أنا أحب الصوت الجميل ، فهل هناك غناء في الجنة ؟ فأجابه صلى الله عليه وآله : عندما تتحرك أوراق أشجار الجنة تصدر أنغاماً لا يتحمل أهل الأرض سماعها ، لجمالها ، وهذه الأنغام كلها تسبيح بحمد الله .

فليسعى الباحث عن الأنغام الجميلة إلى سماع أنغام وموسيقى الجنة . فالموسيقى في عالمنا تحطم الأعصاب السليمة .

وفي الحقيقة لم يكن للأنغام وجودٌ واسعٌ في هذا العالم ، ويبدو أنها ظهرت في زمان النبي داوود عليه السلام حين كان يترنم بالزبور ، فكانت جميع المخلوقات من إنسانٍ وحيوانٍ تتجمع حوله لسماع صوته الجميل . ويقال : إن بعض الحيوانات كانت تموت أثر فراغه من قراءة الزبور والترنم به .

قال أمير المؤمنين عليه السلام ، عن النبي داوود عليه السلام : « داوود قارىء أهل الجنة » . فترانيمه جذبت حتى الحيوانات الوحشية ، وكانت الطيور تحلق فوق رأسه والجبال تتأوب معه .

وخلاصة القول : على الإنسان المؤمن أن يترك أنغام هذه الدنيا الفانية ويهيىء نفسه لسماع أنغام الآخرة ، وهي الصوت والنغمة العذبة الحقيقية .

مباهج ومسرات الدنيا ملوثة :

كل مباهج الدنيا ملوثة ، ولذاتها ومسراتها ملوثة بالمفاسد . وقد أخبرنا الرسول الأكرم والأئمة الأطهار ـ صلوات الله وسلامهم عليهم ـ عن مسرات

الجنة ، ومباهجها ، لكي لا تبقى ذواتنا مرتبطة بمسرات الدنيا المليئة بالمفاسد والشوائب . والهدف لم يكن إبعادنا كليّاً عن نعم الدنيا ، حيث أن بعضها يقع في إطار التكيف الإلٰهي ، ولا يصح تركها ، وبالعكس .

فالتبذير حرام ، وهدر الإنسان لحقه غير جائز ، وهذه كلها تقع ضمن التكليف الإلٰهي بأن يحفظ الإنسان ماله وحقه .

كما أنه من المستحب ـ أيضاً ـ أن يسعى الإنسان في كسب لقمة عيشه . الاّ أن المؤمن يجب أن يتجنب الحب الشديد للدنيا . ولا يرى نفسه فيها سوى مسافر ينوي الرحيل إلى الجنة . وذلك أن الجنة أفضل للإنسان من لذات الدنيا الفانية . ومتى ما اهتدى القلب إلى هذه الحقائق ، فان عمل الإنسان سيكون صالحاً ـ أيضاً ـ وينفعه في آخرته . « أنا بين الجميع وقلبي في مكانٍ آخر » . على الإنسان أن يتمنى من كلّ قلبه مجيء ذلك اليوم السعيد الذي يجلس فيه مع الإمام علي عليه السلام على مقربةٍ من حوض الكوثر .

الهدف والأمل بالآخرة :

إذن : فالزهد بهذا المعنى يكون واجباً ، سواء كان الإنسان فقيراً أم مليونيراً . لديه منزل أم ليس لديه ، وأن يكون على يقينٍ تام من الآية الشريفة ﴿والآخرة خير وأبقى﴾ فكون العبد مليونيراً لا يعني انتفاء التفكير والعمل لأجل الآخرة . وسواء كان رئيساً أم مرؤساً ، فينبغي أن يتعلق قلبه بالدار الباقية التي سيرحل إليها عمّا قريب ، ذلك لأن الحياة الفانية لا قيمة لها ، وكل القيمة للحياة بعد الموت .

مرارة الموت :

ما قيمة الجهد الذي تبذله لجمع وتكديس أموالك ؟ لقد أعددت لنفسك بيتاً جميلاً ، وتعيش حياة كلها رفاهية ، وفجأة يأتي عزرائيل عليه السلام ليقول

لك : لقد حان وقت الرحيل . ماذا ستقول له ؟ قطعاً لا تستطيع الإعتراض على مشيئة الله سبحانه وتعالى ، أو أن تقول لعزرائيل : لم أستمتع بحياتي بعد ، وأريد أن أعيش عمراً أطول . ولن يتردد عزرائيل في رفض طلبك ، ولن يمنحك ولو ساعة واحدة أخرى .

فما قيمة ذلك القصر الجميل ، وتلك الحديقة الغناء ؟

لا تلقي أيها العبد بمرساتك في هذه الحياة ، واستعد للذهاب إلى مكانٍ لن تطرد منه إلى أبد الآبدين ، إلى جوار محمد ، وآل محمد صلى الله عليه وعليهم .

لا نعني من ذلك أن يدمر الإنسان بيته يبيعه بثمنٍ بخسٍ ، بل أن يعرف قدر نفسه ، وأن يعمل على معاشرة الفقراء ، فان عدم الزهد في هذه الدنيا يعني الإبتلاء بحبها .

الدنيا دار من لا دار له :

لو كان للإنسان عقل واع ، ومدرك ، لفهم قول الرسول صلى الله عليه وآله : « الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له » .

فالدنيا ليست سوى محطة عبور إلى الدار الآخرة وليست مكان إقامة أبدية . والدنيا هي مال من لا علم له بالثروة الحقيقية . فالمسلم الذي لديه إيمان ومعرفة بالولاية . وبآل البيت عليهم السلام لا يهتم بالملايين التي يملكها ، ولا يراها تشكل ثروة حقيقية له ؛ ذلك أن الثروة والذخيرة الحقيقية تكمن في ذات الإنسان . أما المال فأهميته نسبية .

« ولها يجمع من لا عقل له » . وقد قصد الرسول صلى الله عليه وآله من ذلك أن كل من يجمع الأموال لا عقل له . قال الشاعر :

هـذه دار لا مـحـالـة فـانـيـة فـطوبى لقوم يـريدون الـدار البـاقيـة

نعم على كلّ مكلفٍ الميل بقلبه إلى الآخرة ، وهذا هو الحد الواجب من الزهد على كلّ مسلمٍ .

القلب المملوء بحب الله يخلو من حب الدنيا :

من المستحب إذن بلوغ العبد مرحلة الميل بقلبه عن هذه الدنيا ، والزهـد فيها ، وهو الحد الذي توصل إليه الأنبياء والأولياء الصالحون .

ومن واجب كـلّ مسلم الحفـاظ على الـدرجـة الأُولى في هـذا السلم أي الميل والرعبة إلى الآخرة ، وطلب نعم الجنة وليس نعم الدنيا .

فالجهلة يهتمون بلذائذ الدنيـا ومباهجهـا فقط على اعتبار أن الآخـرة شأن آخر . أما المؤمن ، فانه يعدّ لقبره سواء أصلحت هذه الدنيا أم فسدت .

التغاضي عن الإنتفاع من الدنيا :

في حـالات التزاحم الشـرعي يتضح جليّـاً مـدى تعلق القلب بـالـدنيـا أو بـالآخرة . فعلى سبيـل المثل يـريد شخصٌ مـا الحصول على سجـادةٍ ، بـدون مـوافقة صـاحبهـا . أو إن هـذه السجـادة ملكٌ لشخصٍ لم يبلغ سن التكليف أو مشتركة . شرعاً يحرم على هذا الشخص أخـذ تلك السجادة . فلو اتصف هـذا الشخص بالزهد ، أو الحد الواجب منه ، فانه سيـأنف قطعـاً من المبادرة بعمـل حرام ، ويغض النظر عن المصالح الدنيوية الفانية لتصلح آخرته .

أما إذا قال هذا الشخص : نستفيد منهـا الآن ، وغداً سـوف تحلّ . فـان قلبه متعلق بهذه الدنيا ، ومنافعها الزائلة .

وعليه في الواقع أن يتغاضى عن الإستفادة من هذه النقـود الحرام ، حيث أن الآخرة أجدى له وأبقى .

والأهم من ذلك أن الإنسان قد يعمل جاهداً على عدم الخوض في حديث ما لكي لا يبتلي في آخرته . ومثل هذه الحالات ، وحالات عديدة أخرى ، تعكس لنا مدى زهد الإنسان ، وهل بلغ الحد الضروري والواجب منه أم لا ؟

فنحن جميعاً نعلم بأن الرحيل عن هذا العالم حتمي ، وفي الغد القريب سيرحل الأولون والآخرون عن هذا العالم ، ولشدة الأسف ، فان معظم الناس يتصرفون عكس المتوقع والمفروض فيهم ؛ إذ يزهدون بالآخرة ، ويقبلون على الدنيا ، وللأسف أيضاً ـ فان أتباع الأديان ، والملل والشعوب الأخرى لا تعرف لها داراً غير الدنيا . والحياة بعد الموت بالنسبة لهم وكأنها مجرد قصة تحكى .

الخرابة ومجلس رقص الشحاذين :

في كتاب (عين الحياة) للسجلسي : إن سلطاناً ووزيره ، قد خرجا بعد منتصف إحدى الليالي للتجول في مدينتهم ، والإطلاع على شؤون الرعية . فوصل السلطان ووزيره إلى خربةٍ يصدر عنها أصوات غناء وضحك ، فاتجهوا نحوها ، ودخلوها ، واختبأوا في إحدى زواياها ، فرأيا فيها شحاذاً قذراً ، وامرأةً سوداء اللون ضخمة الجثة تضحك وتغني ، وتتباهى بمدى سعادتها ، وزوجها بهذه الحياة التي لا يحظى بها حتى السلطان نفسه . وكان السلطان ووزيره يسمعان إلى غناء المرأة ويضحكان .

وهنا تساءل الملك : هل هما مجنونان أم عاقلان ؟ ألا يعرفان كيف نعيش ، وكيف هو قصرنا ، وفرشنا ؟

فأجاب الوزير العاقل : إن هذين الشحاذين يجهلان كل ما يتعلق بحياة السلاطين ، والملك ، ويعتقدان أن الحياة السعيدة حقّاً هي حياتهما . نعم أيها السلطان إن حياتنا في هذه الدنيا الفانية ، وجهلنا بالحياة الأبدية كجهل هذا الرجل وهذه المرأة بعيشة الملوك .

فاستاء الملك من حديث وزيره ، وقال : هل من الممكن أن يوجد قصر أجمل وأفخم من قصرنا ؟

فأجاب الوزير : نعم وسوف يبلى هذا القصر يوماً ، ويصبح أطلالاً . وسيأتي يوم تنتهي فيه حياة العظمة والجاه والسلطان ، ولن تبقى لنا سوى حياة الآخرة التي لا تنفى ولا تبلى .

وفي آخر المطاف أقنع الوزير سلطانه : أن جهلنا بالعالم الآخر يجعلنا نتمسك بالدنيا ، إلّا أننا لو فكرنا بالعزة التي سنحظى بها بعد الموت لتركنا كل أمل لنا في هذه الدنيا الفانية .

إحتفال في البرزخ لاستقبال روح الشيخ الأنصاري :

يحكى أن شخصين من طلبة وعلماء النجف الأشرف الأفاضل قد تعاهدا على أنه إذا اختطف الموت أحدهما قبل الآخر أن يأتي صاحبه في المنام ليقصّ عليه ما حصل له بعد الموت . وفي يوم من الأيام توفي أحدهما . فكان صاحبه يتوضأ كل ليلة ، ويقرأ السور السبع وآدابها ، ليحلم بصاحبه المتوفى ، إلّا أن ذلك لم يتحقق إلّا بعد مرور شهرين ، تجلت له روح صاحبه في منامه . وبعد أن عاتب صاحبه المتوفى على تركه منتظراً طوال هذه الفترة . أجابته الروح بأنه لم يقصد ذلك أبداً ، إلّا أنه كان مشغولاً بالإحتفال الذي أقيم في البرزخ ، لاستقبال روح الشيخ مرتضى الأنصاري . ولم يستطع أن يترك مجالس الزينة والفرح التي أقيمت بهذه المناسبة .

وبطبيعة الحال إن مجالس الفرح والسرور التي تقام في البرزخ لا تشابه مجالسنا في هذا العالم . أما كيف يمكن أن تكون؟ فيجب أن نذهب نحن أيضاً - إلى هناك لنرى .

وكما جاء في القرآن الكريم ﴿**فلا تعلم نفس ما أخفي لها من قرة أعين**

جزاء بما كانوا يعملون﴾[1] .

كمال الزهد في الإمام علي عليه السلام :

أعلى مراتب الزهد ، وقطع كل جذور الإهتمام والرغبة والتعلق بهذه الدنيا . والتمسك بالآخرة تتمثل في الإمام علي عليه السلام . ومن المستحيل أن نجد شخصاً قد وصل إلى مرتبة الزهد الكامل التي تجسدت في الإمام عليّ عليه السلام .

قال عطية أو شخصٌ آخر غيره : إنه دخل ضيفاً على الإمام بعد أن أصبح خليفة للمسلمين . وكان هناك مقدار من التمر ، أراد وضعه في صحنٍ . إلاّ أنه لم يجد ، صحناً واحداً في بيت أمير المؤمنين عليه السلام ، فقال عطية للإمام عليه السلام : أنت خليفة للمسلمين ، ولم أجد في بيتك صحناً واحداً ، لأضع فيه التمر ؟

فأجاب أمير المؤمنين عليه السلام : « إن بيتنا في مكانٍ آخر ، ولذلك البيت نرسل » نعم . إن اهتمام علي عليه السلام كان منصباً على الدار الآخرة فقط ، ولم تحظ الدنيا بجزءٍ ضئيلٍ من اهتماماته . فما أسعد من يحاول حتى التشبه بزهد الإمام عليه السلام . أللّهم ألهمنا التوجه إلى الآخرة والزهد بالدنيا .

الزهد عند المعصية :

ما فعله الحرّ في يوم عاشوراء هو من نماذج الزهد الجميلة . فالحر تجاهل كليّاً مغريات الرئاسة ، وماء الفرات ، والطعام الفاخر ، والنقود والوعود التي وعدها به ابن زياد ، رفض كل الوعود والمغريات التي تدير رأس الإنسان ،

---

(١) سورة ألم السجدة ، الآية : ١٧ .

لأنه كان يعلم أن الآخرة أجدى وأبقى .

والقرار الذي اتخذه بلغ به إلى فيض الشهادة في ركاب الإمام الحسين عليه السلام وفي الواقع إن الحرّ قد عمّر منزله في الآخرة ، وذلك هو المهم . نعم لقد ارتعش وخاف وتاب .

فعلى كلِّ مؤمنٍ عندما يرى نفسه على وشك إرتكاب معصية ما ، أن يدرك بأن هذا هو الوقت المناسب للزهد ، وقطع جذور أيّة رغبة له في هذه الدنيا الفانية .

الفصل السادس

منهج السعادة في الدعاء :

« وتفضل على العلماء بالزهد والنصيحة ، وعلى المسلمين بالجهد والرغبة وعلى المستمعين بالاتباع والموعظة ، وعلى مرضى المسلمين بالشفاء والصحة ، وعلى موتاهم بالأمنة والرحمة وعلى مشايخنا بالوقار والسكينة وعلى الشباب بالإنابة والتوبة » .

يعتبر الدعاء الآنف الذكر للإمام الحجة ابن الحسن (عج) . منهاجاً ، ونظاماً قائماً على الدين الإسلامي الحنيف ، وهو يمثل المنهج الإنساني لأتباع ومريدي صاحب الزمان (عج) فان اتبعوه حصلوا على السعادة الأبدية ، وإن خالفوه ، فقد انتهجوا سبيل الشيطان .

أي سبيل يختاره الإنسان :

بادىء ذي بدء لا تصدر عن الإنسان سوى أفعال ذاتية إذ أنه يقف على

مفترق طرق ، فهناك سُبُل إنسانية ، وأخرى وحشية . كما أن هناك سُبُل يمكن وصفها بالبهيمية أو الحيوانية ، وسبل تعتمد المكر والحيلة والدهاء . فأي طريق أو سبيل يختاره الإنسان من بين هذه السبل المتعددة ، وعلى أيّ نظامٍ يسير ؟

اختبار الإنسان للسبيل والنظام الإنساني يعني إلتحاقه بعد الموت بالملائكة والملأ الأعلى . أما انتخابه للحياة الوحشية الشبيهة بحياة السباع المفترسة ، فسيؤدي إلى حشره في عالم البرزخ والملكوت السفلي .

وإذا سلك الإنسان المنهج البهيمي الحيواني ، فلن تختلف حياته عن حياة البهائم ، والتي لا تعرف معنى وهدف غير الأكل والنوم وإرضاء الغرائز والشهوات .

أما سبيل المكر والدهاء ، فيعني بكلّ بساطةٍ حشره إلى الملكوت السفلي ، بل وإلى أسفل السافلين .

إذن : فالمنهج الإنساني هو الأمثل والأفضل للتطبيق ، ليلتحق الإنسان في العالم الآخر بالملائكة والرسل والصالحين ، وتجسد الإنسانية بكلّ معانيها السامية في ذات الإنسان تبشره بحشر مع أشرف أولاد آدم محمد صلى الله عليه وآله .

حب الخير واجبٌ على العلماء بالذات :

ينص منهج الإمام (عج) قبل كل شيء على ضرورة تقديم النصائح خلال التعامل بين المسلمين . فالواجب يقتضي من كل مسلمٍ مؤمنٍ أن لا يتردد في عمل الخير وحبه ، والإجتهاد في دفع الضرر والشر عن جميع المسلمين . فان رأى المسلم شخصاً على وشك السقوط ، عليه أن يسرع لمساعدته ، والنهوض به من سقطته ، ومن واجب المسلم ـ أيضاً ـ تقديم النصح للسائق الذي يقود سيارته بأقصى سرعة ، أن يخفف من تلك السرعة المخيفة ، وإلاّ ألحق الضرر

بنفسه وبالآخرين .

فإذا كان زيدٌ من الناس ، يعاني من مصاعب جمة جعلته يائساً من رحمة الله ، فان الواجب يستدعي إهداءه إلى السبيل القويم ، وتحذيره من الكفر واليأس من رحمة الله .

وأنت أيها المسلم ، هل صادفك رجلٌ طيبٌ ، يعاني من هبوطٍ شديدٍ في معنوياته ، ويعترض على قضاء الله وقدره ، بعد أن مات ابنه الشاب ؟ عليك بتهدئته وتذكيره بأن ابنه لم يكن أعلى مقاماً أو أكثر شباباً من ابن الإمام الحسين عليه السلام .

نعم ، إن الواجب الإنساني يدعو جميع المسلمين إلى حبّ الخير وعمله ، سواء كان ذلك العمل مادّياً أو معنوياً ، لا أن يؤمّنوا الراحة لأنفسهم فقط ويتجاهلوا الآخرين ؛ لأن في ذلك منتهى الأنانية .

الطابع الإنساني لعمل الخير :

قد تكون بعض الجمل والعبارات صغيرة وقصيرة، إلاّ أنها تساعد على توعية الآخرين . فعلى سبيل المثال لتستطيع المرأة تغيير الآخرين ومساعدتهم وبث روح الإنسانية فيهم ، عليها قبل كل شيء أن تكون هي نفسها إنسانة وبكلّ معنى الكلمة .

فيا أيتها المرأة ، كما تحبين الخير لابنتك ، عليك أن تحبيه لبنات الآخرين فإذا كانت الرغبة تلح عليك في إيذاء كنتك ، فكيف تتوقعين أن تحشري يوماً مع فاطمة الزهراء عليها السلام .

إن سلوك المنهج الحيواني لا يعني سوى العيش كالحيوانات التي لا تفهم سوى الحصول على اللقمة الدسمة ، ومن ثَمَّ ، فان هذا السلوك يجسد الأنانية الكاملة .

الدعاء لشفاء المرضى

أما المنهج الثالث في دعاء الإمام (عج) فيتمثل في « وعلى مرضى المسلمين بالشفاء والصحة » . فالدعاء لشفاء مريض من أقربائك هو جزء لا يتجزأ من إيمانك أيها المسلم . أما الشماتة به ـ لا سمح الله ـ والتي تبدو في قولك : لقد دعوت عليه ، فانظروا كيف انتقم الله تعالى لي منه . فهو منتهى البشاعة ، ولا تنسى أن هناك من الناس من قد يدعو عليك بالسوء أيضاً .

عدم الرضا بأذى المسلمين أو مرضهم :

على المؤمن أن يفعل كل ما يقدر عليه من أجل دفع الأذى عن المسلمين ، وما يعجز عنه ، يطلبه من الله سبحانه وتعالى . فالذي يقدر عليه المسلم عيادة المريض وتهدئة باله . فالمرض يسبب الكآبة ، والكآبة تحتاج إلى تسلية . لذلك ، فقد أوصى الإسلام كثيراً بضرورة تسلية المريض والتردد عليه ، وتهدئة خواطره المتبلبلة .

إستحباب زيارة المريض مع هدية :

جاء في كتاب ـ المحجة البيضاء ـ : إن أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام مرض ، ووصلت أخبار مرضه أسماع شيعة الإمام عليه السلام . وتقول الرواية : إن إثنين من أتباع الإمام قد بادرا إلى زيارة المريض . وجاء ثلاثةُ أشخاص من مكانٍ آخر لعيادته أيضاً ، وبدوره غادر الإمام عليه السلام منزله بهدف عيادة هذا المريض ، فالتقى الجميع على مقربةٍ من بيته . وقد فسح الرجال الخمسة المجال للإمام عليه السلام ليتقدمهم تأدباً .

وهنا تساءل عليه السلام أن هل أتيتم معكم بشيءٍ ؟

فأجال الجميع كلا ، لم نأت بشيءٍ .

فقال الإمام الصادق عليه السلام ، ما معناه : إن الهدية تفرح المريض ونصحهم بالعودة لشرائها قبل عيادته .

مواساة المريض :

دعاء المريض مستجابٌ ، ويشمله الله تعالى برحمته وعنايته . وعلى المسلم أن يسعى إلى دفع الكآبة التي تستولي على روح المريض ، والسماع له ، ومواساته بكلماتٍ طيبةٍ ورقيقةٍ ، ولا ينبغي أن يفهم المريض قلقنا عليه ، بل يجب تشجيعه وبث القوة في نفسه ، كالقول بأن الشفاء بيد الله تعالى ، ولا تيأس من رحمة الله ، أو إن فلاناً كان يفوقك مرضاً وألماً إلاّ أن الله كتب له السلامة والشفاء .

عيادة المريض المبتلى بمرضٍ مزمنٍ :

تذكر الروايات أن عيادة المريض مستحبة ، بعد ثلاثة أيام من مرضه ، ومتى ما كان مالكاً لحواسه كلها . أما إذا كان قد ابتلي بمرضٍ شديدٍ ، بحيث دخل في غيبوبةٍ طويلةٍ ، فان عيادته غير مستحبة . والحال كذلك إذا طال مرضه لسنوات عديدة ، إلاّ إذا كان يشعر بانشراحٍ وسرورٍ لزيارته . وهنا فان استحبابها باق .

وعموماً يجب مراعاة رغبة المريض ، وحاله عند العيادة .

تقول إحدى الروايات إن وقت العيادة لا يجب أن يطول عن الزمن الذي يستغرقه حلب الناقة . وبمعنى آخر ، فان عيادة المريض يجب أن تكون قصيرة لا تستغرق أكثر من دقائق معدودة ، إلاّ إذا أصرّ المريض على بقاء الضيوف إلى جانبه مدةً أطول . وغالباً ما يشعر المريض ـ وحتى ممرضه ـ بالضيق لاستغراق الزيارة وقتاً طويلاً .

وعلى هذا ، فان شعر الإنسان بأن المريض لا يمانع ، بل ويرغب أن

تطول فترة العيادة ، فلا بأس ، أما إذا لاحظ تعبه وعدم ارتياحه فمن الأفضل أن يختصر زيارته .

عيادة الإمام علي عليه السلام للمريض :

جاء في « بحار الأنوار » أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يلزم نفسه ـ عند الذهاب إلى أماكن معينة ـ بحمل نعليه بيده . وتلك الأماكن هي : صلاة الجمعة ، وصلاة العيد ، وعيادة المريض ، وتشييع الجنازة .

وتقول الرواية : إن الإمام علي عليه السلام حينما كان يعود مريضاً ، كان يخلع نعليه في الخارج ، ويدخل على المريض حافياً ، عكس ما هو شائعٌ هذه الأيام عند أولئك الذين يدعون بأنهم من شيعة علي عليه السلام .

نعود إلى الرواية التي تقول بأن الإمام عليه السلام : سئل عن سبب خلع نعليه ؟ فقال : « لأنني أريد الذهاب إلى مكانٍ تنزل عليه رحمة الله ، وينظر إليه الله » . نعم ، إن الخالق البارىء ـ عزّ وجلّ ـ وبكلّ عظمته يشمل هذا المكان برحمته وعنايته الإلٰهية ، وعلى المؤمن الحقيقي التحلي بالأدب والوقار ، ويدخل بكلّ خشوعٍ وخضوعٍ . ولشفاء المريض ، فان الدعاء والتوسل بالقرآن مؤثرٌ ومفيدٌ ، كقراءة سورة الفاتحة على الأقل سبع مرات ، حتى تصل إلى سبعين ألف مرة .

إهداء الرحمة للأموات :

« وعلى موتاهم بالرأفة والرحمة » . العلاقة التي تربط المسلم بالميت لا ينبغي أن تختلف عن العلاقة التي كانت بين الاثنين قبل الموت ، ويغلب عليها طابع الرحمة والعطف . فالمؤمن كان يساعد رفيقه ، ويرأف به ، ويعطف عليه . أما وقد رحل إلى الدار الباقية ، فلا ينبغي أن يتغير الوضع ، لأن الميت في حاجةٍ إلى مساعدة وعون الحيّ ، والتي تتجاوز قيمتها مئات المرات عنها ،

عندما كان حيّاً يرزق .

الصدقة الإيمانية عند الإحتضار :

كيف يمكن مساعدة الأموات والترحم عليهم ؟

عندما يسمع المؤمن بأن رفيقه يحتضر ، عليه أن يهرع ليكون إلى جانبه . ومن الأفضل أن يصل إليه قبل أن تفيض روحه ، حيث من المستحب أن لا يبقى المحتضر وحيداً في ساعاته الأخيرة ، إذ يكون في أمس الحاجة إلى وجود رفيقه في الدين والإيمان ، ليشدّ من أزره في تلك الساعات .

قال الإمام الصادق عليه السلام لصاحب له من أهل العراق ما معناه : وأنت تسعى لتلقين المحتضر الكلمة الطيبة « لا إله إلّا الله » لقنه أيضاً « محمد رسول الله » . فبذكر إسم خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله سيتجدد حب المحتضر له ، ويتأصل في ذاته أكثر من السابق .

نعم إن الإمام الصادق عليه السلام يدعو المسلمين كافةً إلى ذكر إسم محمد صلى الله عليه وآله لدى المحتضر . وهل يوجد مؤمنٌ لا يحب محمد صلى الله عليه وآله . قال الشاعرُ :

إن تصابيت يا سعدي وكنت متيّماً كفاك حبّ محمد وآل محمد

وعند الإحتضار ، من المستحب ذكر أسماء أحب وأعز المخلوقات ليردّده المحتضر ـ أيضاً ـ ويزداد شوقاً إلى لقاء محمد صلى الله عليه وآله .

نفهم مما سبق القول : إن على المؤمن أن يسعى إلى الوقوف بجانب المحتضر ليشد أزره ، ويقوي قلبه بالتوحيد والإيمان والولاية .

تشييع جنازة المؤمن :

من التقاليد المتبعة عند تشييع الميت أن لا يترك المسلمين جنازة تبقى

على الأرض . عن الرسول صلى الله عليه وآله أنه قال : « إذا مات أحدكم مساء فلا تبقوا عليه إلى الصباح . وإن مات صباحاً ، فلا تبقوه إلى المساء » .

إلّا إذا كان ذلك بهدف انتظار وصول المشيعين ، الذين يريدون كسب ثواب تشييع جنازة الميت . ورغم ذلك فلا ينبغي أن يطول ذلك كثيراً .

أما مراسم تشييع جنازة الميت هذه الأيام ، فيغلب عليها طابع المباهات والرياء ، فغالباً ما يشارك الناس في تشييع جنازة ما رياءً وتظاهراً ، وليس لأجل زيادة عدد المشيعين ، ليصل الميت المزيد من الثواب .

ومجالس العزاء اليوم تزدحم بجموع المعزين لتجليل وتكريم إسم عائلة المتوفى فقط .

ومن الضروري الإسراع بإجراء مراسم الدفن قبل أن تتعرض جنازة الميت للتعفن ، وخصوصاً في فصل الصيف . فما دامت الجنازة لم تشيع إلى مثواها الأخير ، يزداد ألم وحزن ذوي المتوفى .

والوعتاه . على ذوي الإمام الحسين عليه السلام ، حيث بقي رأس الإمام الحسين عليه السلام أمام أعينهم لأربعين يوماً .

زيارة القبور :

تلقين المحتضر هو من الواجبات الأكيدة . وعند الدفن يتم تلقين الميت أيضاً .

ويقال : إن الميت وبعد انتهاء مراسم الدفن ، يسمع وقع أقدام المشيعين وهم يغادرون المقبرة . والرواية تقول أيضاً : إن على ذوي الميت وأقرباءه العودة إلى القبر ، وتلقينه . للمرة الثالثة .

أوصى السيد ابن طاووس ولده أن لا يترك قبره ، إذ قيل : « إن الميت ليسمع نداء أهله » . وعندما يزوره أقرباءه في الأعياد والمواسم المختلفة يشعر

الميت بالفرح ، ويقول : « يا لفرحتي إذ ذكرتموني » .

سئل الإمام الصادق عليه السلام هل تشعر بالخوف بعد عودتك من زيارة قبر ؟ فأجاب : « كلاّ ، لأن المؤمن لا يشعر بالخوف ، والميت يفرح لزيارة أقربائه » . ومن المعروف أن الدعاء عند قبر الوالدين مستجاب ـ أيضاً ـ .

ولذا من المستحب طلب الحاجة عند قبرهما . وهذا أيضاً أحد أبواب الرحمة والرأفة بالأموات « وعلى موتانا بالرأفة والرحمة » .

الفصل السابع

عتاب الجاهل :

« مـدلاً عليـك فيمـا قصـدت فيـه إليـك ، فـان أبـطأ عني عتبت بجهلي عليك »[1] .

إن جهل الإنسان كبيرٌ إلى الحد الذي يعاتب فيـه الله تعالى ، كمـا يعاتب الطفل والديه . فادراك الإنسان ناقصٌ ، ويجب أن يعي أن التأخير الحاصـل في إجابة حاجته هو لمصلحته « ولعـلّ الذي أبـطأ عني هو خيـر لي » . فعلى سبيل المثال : يبكي الطفل بكاءً شديداً ليجبر أُمّه على إعـطائه شيئـاً أو تلبية رغبتـه ، وقد تسارع الأم إلى إعـطائه صحنـاً من الرزّ غيـر مطبـوخ جيّداً لاسكـاته . فهنـا سيصاب الطفل بمغصٍ شديدٍ ، وهو عاقبة إصراره على حاجةٍ كانت بضرره .

والأمر كذلك بالنسبة للإنسان البالغ الذي يلح أحياناً على طلب حـاجة مـا

---

(١) دعاء الإفتتاح .

من الله سبحانه وتعالى ، والإستجابة لحاجته ، قد لا تحقق مصلحة له .

وعلى هذا الأساس ليكون لدى المسلم يقين قاطع بأن الله عندما يستجيب لدعائنا ، فانه سيفعل ذلك في الوقت المناسب لنا « لعلمك بعاقبة الأمور » .

حلم الله ـ عزّ وجلّ ـ :

« فلم أر مولىً كريماً أصبر على عبدٍ لئيمٍ منك عليَّ » . فعلى الرغم من سيئات الإنسان وجهله الكبير ، فان الله يستجيب له عندما يقول : يا ألله .

إلّا أنه لا ينبغي أن ينسى نفسه ، ويتمادى في غيه ، وليمد ساقيه على قدر بساطه .

أيها المسلم المؤمن ، إقرأ الفقرة السابقة من دعاء الإفتتاح بدقةٍ كبيرةٍ في شهر رمضان المبارك ، وغيره من الشهور ، وانتبه إلى عيوبك وتطلع إلى كرم الله سبحانه وتعالى الذي يلطف بعباده ، رغم ذنوبهم وخطاياهم .

واجب العبد مقابل استجابة الدعاء :

على العبد المؤمن أن يطهر قلبه من الأدران ، ولا يسمح لها بالنفاذ إليه ، وأن يخضع لحكمة الله تعالى ، عندما يرى أن الإستجابة لدعائه تأخرت .

فمن آداب الدعاء الإصرار عليه ، فان أعطيت للعبد حاجته لا ينبغي أن ينتابه العجب والغرور ، بل أن يشخع ويخضع لله سبحانه وتعالى ، ويشكره كثيراً ، وإن تأخرت الإجابة ، فعلى هذا العبد أن ينتظر بقلبٍ مطمئنٍ إذ أن الله سيلبي حاجته أو بدلاً عنها ، وسيفرح كثيراً .

العبد يعطى الأفضل :

فعلى سبيل المثال يلح الطفل على والدته أن ترقع له ثوبه البالي . إلّا أن

الأم تعده بأن تخيط له ثوباً جديداً ، لأنها تعرف بأن القديم لم يعد صالحاً للإستعمال ، وبالفعل تبادر والدة الطفل إلى شراء قماش لتفصل منه ثوباً جديداً لابنها .

والإنسان عموماً كهذا الطفل الذي يصرّ على طلب حاجة لا تنفعه فيعطيه الله ما هو أنفع وأصلح له .

وهناك العديد من الروايات التي تقول بأن منادياً ينادي يوم القيامة : يا عبدي أتذكر الحاجة الفلانية التي طلبتها في الدنيا في يوم كذا ، ولم نستجب لك ؟ فاليوم أطلب بدلاً عنها ما تشاء . فيتمنى العبد ، ويقول في نفسه : يا ليت نفسي لم تُلبّ لي حاجةً في الدنيا ، لأصبحت ذخيرةً لي اليوم .

وكما جاء في القرآن الكريم ، ما معناه : إن يوماً في الآخرة الباقية يعادل خمسين ألف سنة من حياة الدنيا الفانية[1] .

التأخر في الإجابة لزيادة الإنتفاع :

خلاصة القول : لا ينبغي أن يتوقع العبد من ربّه سوى الخير ، والمصلحة وليكن عنده يقين لا يتزلزل بأن الله تعالى أرحم من نفسه على نفسه . فهو ما أن يلبي الحاجة التي طلبها العبد ، أو أحسن منها أو يجعلها ذخيرةً له في الآخرة . فيجب على المؤمن أن لا يفسح مجالاً للظنون بالتغلغل إلى قلبه ، حيث أن لكلّ عملٍ إلٰهيٍّ حكمة إلٰهية ، بل عليه أن يشكر الخالق خالص الشكر ، لأنه لم يلبّ له حاجةً ، لأن حكمته تعالى قد اقتضت ذلك .

وأحياناً تمضي سنة أو أكثر حتى تتم الإجابة لدعاء العبد ، ولربّما لو تمت قبل ذلك ، لما كانت في صالح العبد ، ولذهبت هباءً ، وكذلك يجب الإيمان

---

(١) ﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ سورة المعارج ، الآية : ٤ .

بأن ما يشاء الله يكون .

الأسباب تمنع الإنقطاع :

يقول الشاعر :

أريد رؤى للأسباب ثاقبة تجتث من الجذور كل أسباب -

الواجب يفترض على المؤمن أن يتجاهل الأسباب ، ويقول : « أللّهم اعطني نور العقل كي أكون من الموحدين ، وأتجه إلى مسبب الأسباب » فالله تعالى هو الذي يسير الأمور ، وما دام الإنسان يتوجه إلى الأسباب لأجل الأسباب بحدّ ذاتها ، فلن يستطيع أن يبلغ حالة الإضطرار والإنقطاع إلى الله ﴿أمّن يجيب المضطر﴾ .

واضطرار المؤمن سيكون حقيقيّاً متى ما لجأ واضطر ، فقط إلى الحق تعالى في أيّة مشكلةٍ تعترضه ، سواء أكان هذا الإضطرار ناجماً عن علمٍ بحقيقة الإضطرار أو غريزيّاً وفطرياً ، وحاجته ستستجاب بدون شكّ .

الإنقطاع حالةٌ نادرةٌ :

العبد البائس الفقير يلجأ إلى الله سبحانه - عزّ وجلّ - غريزياً ، كما قلنا أو مهتدياً بنور العلم ، حيث ينقطع عن كلّ شيءٍ ، ويتجه بكامله إلى الله ، كالطفل الذي لا يرى ، ولا يعرف سوى أمّه . عندما تعترضه مشكلة ما ، وعندما يناديها يسمع صوتها الحنون .

كذلك المؤمن ، إذا التجأ إلى الله تعالى ، وناداه من أعماق قلبه ، فليكن على ثقةٍ ويقينٍ تامين بأنه سيسمع إجابته سريعاً ، وكأنها خلف رأسه .

فأين منا هذه الحال ؟ إن وجود هذه الحالة عند كلّ طفلٍ صغيرٍ ، إلّا أنها قد توجد أيضاً لدى أطفال بلغوا الخمسين من العمر ، لا يهرعون سوى إلى

ربّهم الذي « يكشف السوء » عنهم .

ويجب القول بأن التوصل إلى هذه الحالة من الإنقطاع إليه تعالى نادرة الحدوث .

الفضل الإلهي في إجابة الدعاء :

الله يتفضل على عباده المؤمنين ، عندما يستجيب لدعائهم وتوسلاتهم ، وإلاّ فان هذه الأدعية غير قابلة الإجابة ، فحالنا يوجب قهرنا وإذلالنا ، وليس الإستجابة لدعائنا وتلبية حاجاتنا . إلاّ أن الله ـ عزّ وجلّ ـ وبرحمته الواسعة التي تشمل كلّ شيءٍ يتقبل منا ، حتى القول فقط ـ يا ألله ـ التي تعودنا على ترديدها ، رغم أننا قد لا نكون صادقين أو لا نقصدها حتماً .

فالقلب أسير الأسباب ، وذلك دليل على عدم نقاء القلب وطهارته . وطالما تعلق القلب بالأسباب ، فانه لن يتزكّى ولن يتطهر . ومتى ما فقد الإنسان الأمل بجميع الأسباب ، تتأصل عنده حالة الجزع والخوف .

وليس للعبد ـ أيضاً ـ أن يتساءل لماذا تأخرت الإجابة عنه ؟ وقد قرأ الآية الشريفة ﴿أمن يجيب المضطر﴾ .

الدعاء المستجاب :

كما قلنا . إن الإنسان أسير الأسباب ، ومن ثَمَّ ، فقد ابتلي قلبه بالشرك إلى حدٍّ ما ، وهو جاهلٌ بذلك ، فمتى ما اجتمعت الأسباب لن يبقى مكان للإضطرار إلى الله . وعند انتفاء أو إختفاء تلك الأسباب يبدأ الإنسان أنينه وتأوهاته ، ليس اضطراراً ولجوءاً إلى الله تعالى ، بل حزناً وألماً على زوال الأسباب . ولذلك ، فنادراً ما ينبع الدعاء من صميم وأعماق قلب خاشع . ورغم أن الإنسان لا يملك دعاءً حقيقيّاً قابلاً للإجابة ، فعليه أن يشكر ربّه الذي يمنّ عليه بالإستجابة دائماً .

ولو عاد الإنسان بذاكرته إلى الوراء قليلاً ، لوجد أن الله تعالى قد استجاب للكثير من دعواته وحاجاته ، رغم عدم أهليته لذلك .

يا ربّي ، يا من غفرت لنا ، وتقبلت منا ، تفضل علينا أن نكون من الصادقين وأن نبلغ مرحلة الإنقطاع الحقيقي إليك **﴿واذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً﴾**[1] فالإجابة محتمة حتى ما نبع الدعاء من قلبٍ صادقٍ .

الإضطرار نادرٌ وقليلٌ :

سبق القول بأنه سواء أكان الإضطرار غريزيّاً ، أو فطرياً ، أو ناجماً عن وعي وإدراك تامَّين ، حيث استطاع الإنسان أن ينقطع إلى الله تعالى ، فالإستجابة ستكون سريعة وفورية . والإضطرار إلى الحق تعالى عن علمٍ وإدراكٍ حالة نادرة جدّاً . فمن السهولة بمكان أن يردّد الإنسان بعض العبارات الموحية بأن اليقين قد ملأ جوانحه ، وكل شيء بيد الله . والثواب والعقاب بيد الله سبحان وتعالى ، وأنه الكل والباقي ، لا شيء غيره . وأن الإنسان في حاجةٍ متواصلةٍ إلى الحق ـ عزّ وجلّ ـ إلاّ أن التوصل إلى حالة انقطاع حقيقي إلى الله تعالى نادر الحدوث .

هب لنا كمال الإنقطاع :

الإنقطاع الكامل منزلة نادرة جدّاً . وكان أمير المؤمنين عليه السلام يدعو الله فيقول : « إلٰهي هب لي كمال الإنقطاع إليك » .

والإنقطاع يعني الإنفصال الكلي عن كلّ شيءٍ ، والإتصال الكلي بالحق ـ عزّ وجلّ ـ ومثل هذه الحالة لا تصل إليها إلاّ قلوب وعقول مملؤة بنور الإيمان واليقين . وهي لا تحتاج إلى دراسةٍ ما ، بل تتطلب قلباً طاهراً ، ونفساً زكيةً ،

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٠٠ .

لم تُدنس القلب الذي يختفي خلف حجب النفس . وعندما يتم رفع كل هذه الحجب والحواجز ـ بنور المعرفة واليقين ـ يصل الإنسان إلى حالة الإنقطاع التام إلى الله « يا مجيب المضطر بحق المضطر » .

إمام الزمان (عج) المضطر الكامل :

قد يتوصل بعض المؤمنين من عباد الله إلى حالة الإضطرار إلى الله ، إلّا أن كمال الإضطرار هي درجةٌ لم ولن يصل إليها سوى الحجة المهدي عليه السلام .

نقرأ في دعاء الندبة « أين المضطر الذي يجاب إذا دعا » فلم يعرف الله أحد ، كما عرفه صاحب الزمان (عج) ، ولم يقترب من الله أحد كقربه ، ولم يحصل على اليقين المنقطع إلى الله سواه .

إلٰهي هب لنا حالة الإضطرار الكامل إليك بحق صاحب الزمان ، فنحن منقطعون إلى الأسباب ، ومتعلقون بآمالنا ورغباتنا ، وأهدافنا الدنيوية .

الإضطرار الظاهري :

كيف يكون الإنسان مضطرّاً ، وقد عجز عن بلوغ مرحلة الإنقطاع الكامل إلى الله تعالى ؟ فالقلب الذي يضم كل شيءٍ إلا الله ، غير مضطر إلى الله حقيقة ، حتى ولو قرأ ألف مرة ﴿أمَّن يجيب المضطر﴾ . فهذا القلب لا يزال يجهل الله سبحانه وتعالى ، ويجهل معنى القرب منه . ولا يملك يقيناً جازماً بأن الأمور كلها بيده ـ عزّ وجلّ ـ وأمله في كل شيء ، وفي كل الأسباب إلّا في الله سبحانه وتعالى ، ومن ثَمَّ فانه يدّعي الإضطرار .

قد يرقد الإنسان في فراشه مريضاً ، وقد تتوافر لديه شروط الإضطرار إلى الله بسرعةٍ أكبر من الذي يردّد ﴿أمن يجيب المضطر﴾ ولكنه عاجزٌ عن بلوغ حالة الإضطرار .

مفتاح الخزائن الإلٰهية في الآية الشريفة :

في هذه الآية يحدثنا تعالى عن عظمته ، وأبواب فضله ورحمته . وكما قال الإمام عليه السلام بأن الله يضع مفاتيح كنوزه بيد الإنسان . إلّا أن الإنسان هو الذي يقايض على ﴿أمن يجيب﴾ فمتى ما أصبح الإنسان مضطراً حقيقيّاً إلى الله فسيعطيه كل ما يطلبه من مقامٍ ودرجاتٍ معنويةٍ عاليةٍ ، فلماذا يحقّر الإنسان من شأنه ، وقد قال ـ عزّ وجلّ ـ فيه : ﴿ويجعلكم خلفاء﴾ فالمضطر الحقيقي سيكون خليفة الله . وكما قال ـ أيضاً ـ الإمام علي عليه السلام : « العطية قدر النية » والوعد الإلٰهي لا يخلف أبداً ، ورحمته تنزل على العبد متى ما دعاه بقلبٍ صادقٍ ونيةٍ خالصةٍ .

الدعاء يدفع البلاء والضرر :

﴿فليؤمنوا بي﴾ والإجابة ستكون حتمية . فأصل الدعاء هو خلوص النية . وحاجة العبد إلى الله تعالى ، حيث سيأخذ حاجته أو يهبه الله أحسن وأفضل منها . وكمثال على دفع الضرر ، فان الله ـ عزّ وجلّ ـ إما يرفع عن عبده تلك الشدة ، وذلك البلاء ، أو سيدفع عنه ما هو أشد منها . مثلاً قد يشتكي الطفل من بعوضةٍ تزاحمه . وعندما تفتش الأم بين ثيابه تجد بدلاً منها عقربةً قاتلةً . وبطبيعة الحال ستترك الأم البعوضة لتقتل هذا العقرب السّام . وهكذا ، قد يطرق مؤمنٌ أبواب الرحمة الإلٰهية لشدةٍ ، قد ابتلي بها ، ويدعو ربَّه أن يساعده ، ويرفع أسبابها ومسبباتها ، في حين قد تكون هناك شدة أسوء منها وأكثر ضرراً لم يشعر بها بعد ، إلّا أن الله سبحانه يأمر بدفعها عنه أولاً .

فالإنسان يجهل تماماً ما وراء الحجب ، والأستار من أسرار ، وما أكثرها . لذلك يجب عليه أن لا يكون سيء الظن . ولا ييأس من حصول الإجابة فالله يحل المشاكل ويدفع الضرر والبلاء ، وفي الوقت المناسب .

يا من يجيب دعاء المضطر في الظلم يا كاشف الكرب والبلوى مع السقم

قد نام وفدك حول البيت وانتبهوا وأنت يا حيّ يا قيوم لم تنم

حقيقة الدين الإضطرار إلى الله :

الإضطرار هو عين الدين ، وبعبارة أخرى ، فان جوهر الدين هو الإضطرار إلى الله تعالى .

ومتى ما بلغ أحد المسلمين مقام الإيمان الكامل ، واليقين السامي فسيحصل على الإدراك واليقين التام بأنه والكل مضطرون إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ فلا يتمتع أي موجود مهما عظم شأنه ، وعلا مقامه باستقلال عن الله تعالى .

وعندما يدرك المؤمن هذه الحقيقة ، ويؤمن بها يكون قد أدرك أيضاً معنى « لا حول ولا قوة إلّا بالله » . . فجوهر الدين يتلخص في هذه العبارة .

أما الذي يعجز عن بلوغ هذه المرحلة العليا من العلم واليقين ، فانه سيرى نفسه والآخرين والأسباب في حالة استقلالٍ مزيفٍ .

وبطبيعة الحال ، فان دعاء ﴿أمّن يجيب المضطر﴾ لن يمتد ليشمل مثل هذه الفئة من الناس ، لأنه لا يعبر عن حالة إضطرارٍ حقيقيٍّ لديهم . إذ كيف يمكن أن يدعو الإنسان خالقه وهو يرى نفسه مستقلٌ عنه ؟

فمتى ما آمن وأدرك العبد بأن الباري سبحانه وتعالى هو الغني ذاتاً وصفةً وفعلاً ، وأن الكل فقيرٌ إلى الله تعالى من حيث الذات والصفة والفعل ، وأنه محتاج إلى الله تعالى بكلّ وجوده ، فليعرف بأن حالة الإضطرار قد تجسدت فيه ، وليقل : يا أله ، وليقرأ ﴿أمّن يجيب المضطر﴾ فهو سيحصل على مراده .

الدعاء وقيمة الإنسان :

ليس للإنسان قيمة تذكر بدون دعاء . والقرآن الكريم يقول : ﴿قل ما

يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم﴾[1] فما قيمة الإنسان وهو لا يملك نور العلم والشعور بالفقر إلى خالقه ، ما قيمته وهو يجهل بأن الله غني ، ونحن الفقراء إليه .

إن فقدان الشعور والعلم بحاجة الجميع المطلقة إلى الله ، تلغي الفروق الموجودة بين الإنسان والحيوان ، فنور العلم واليقين هو ما يميز الإنسان العاقل عن الحيوان الأعجم .

ولا حاجة بنا للقول : إن الحيوان لا يفهم سوى احتياجاته الغريزية ، إلّا أن علم الإنسان يزداد ، ويتعقد يوماً بعد يوم حتى يصل إلى اليقين المطلق بأن الكل فقيرٌ إلى الله « مضطر إلى الله » .

قراءة ﴿أمن يجيب المضطر﴾ لقضاء الحاجات :

إذن ، الدعاء ليس مجرد ألفاظ يرددها اللسان ، بل هو تعبير عن شعور الإنسان ، ويقينه المطلق بأنه فقيرٌ إلى الله ، وأن الله هو الغني الحميد ، وهو دليل على ثقة الإنسان التامة بحاجته إلى الله تعالى من رأسه وحتى أخمص قدميه . فالله فقط هو الغني الحميد المطلق .

ومن المعتاد قراءة ﴿أمّن يجيب المضطر إذا دعاه﴾ إثنتي عشر ألف مرة في جلسة واحدة ، وليس مؤكداً سند نقل هذا الورود عن أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله .

قال الشاعر :

من ليس له نصيب في القرآن لا يرى فيه سوى النقوش

لقد أنزل الباري الآيات القرآنية لتفتح للإنسان أبواب العلوم على

---

(١) سورة الفرقان ، الآية : ٧٧ .

مصـراعيها لتشجعـه على الوصـول إلى حقيقة الإضـطرار إلى الحق ، وهذا هـو الهـدف الرئيسي من حـالة الإضـطرار ، وليس لأجل الحصـول على مـزيـد من المـال ، أو لتحقيق بعض الـرغبـات التي لا يمكن وصفهـا سـوى بـالسخف ، كقراءة بعض النسوة لختم ﴿أمّن يجيب المضطر﴾ للتخلص من شرّ الضرة .

بركة تكرار قراءة القرآن :

إن تكرار قراءة القرآن الكريم ، لا يعني فقط تنفيذ أوامر الـرسول والأئمـة الأطهار عليهم السلام . والأحـاديث الصادرة عنهم ، بـل لإعانتنا على التوصـل إلى حـالة الإضـطرار الحقيقي ، وحقيقة الإضـطرار إلى الله ، وذلك من خـلال تكرار قراءتها ، بكلّ شوقٍ ، وتمعنٍ ودقةٍ .

فكلمـا ردّد الإنسان كلمـات الله ـ عزّ وجـلّ ـ المقدسـة أكثر ، كلمـا كان نفعها أكثر ، فهي نور للقلب والروح . وهذا التكرار سيجعل القلب يشعر بها ولو لمرةٍ واحدةٍ فقط .

حياء العباد الحقيقيين :

بلغ جهل الإنسان إلى حدٍّ أنه يتدلل فيه على الباري تعـالى « مدلاًّ عليـك فيما قصدت فيه إليك » . فبأيّ حق يطلب الإنسان من خالقه أن يستجيب لدعائه ويلبي حاجته ، فهل كان عبداً صالحاً ؟ وهل يشعر بالخضـوع والخشوع إلى الله حقّـاً ؟ وأين هـو من أولئـك العـابـدين الحقيقيين . « من الـرأس وحتى أخمص القدم » والذين يشعرون بحياءٍ شديدٍ أمام ربّ العالمين .

على الإنسان الإعتراف بجهله ، فهل هو يطلب حقّاً مفروضاً لـه من الله ؟ « فان أبطأ عني عتبت بجهلي عليك » .

فقد يعتقد الإنسان بأن صلاته وصومه ودعاءه وتوسلاته هي شيءٌ عـظيمٌ . في حين أن لسانه ينطق بالبذيء والقبيح والغيبة . ورغم ذلك ، فانه يخجـل من

ترديد كلمة ـ يا ألله .

من حق مثل هذا الإنسان أن يضربه الله تعالى على رأسه . فكيف يمكن التوجه إلى الله تعالى بقلبٍ أسود ، وانتظار ـ لا معنى له ـ بحصول إجابة فورية .

دعاء اللسان المذنب :

جاءت هذه الرواية في كتاب « بحار الأنوار » كان في قديم الزمان رجلٌ له مقام عند الله . فكان يدعو ربّه ليل نهار أن يرزقه بولدٍ ، واستمر على هذه الحال ثلاث سنوات إلاّ أن حاجته لم تتحقق .

فشكى حاله إلى رسول زمانه ، فأوحي إلى الرسول أن يقول له : « تدعوننا بلسانٍ بذيءٍ وقلبٍ عاتٍ غير نقي ، ونيةٍ غير صادقة » .

الفصل الثامن

اليقين بالتوحيد واجبٌ :

طلب العلم فريضة على كلّ مسلمٍ ومسلمةٍ ، على الآباء والأُمهات أن يقوموا بتعليم وتلقين أولادهم أصول الدين ، ومبادىء ديننا الحنيف ، ولا يدّعوا بأنهم قد أدوا واجبهم تجاه أطفالهم في هذا المجال ، فما لقنوه وعلموه لأبنائهم لا يتعدى القضايا التقليدية .

يجب تلقين الطفل البالغ عدة سنوات من العمر أصول الدين بالترتيب : التوحيد ، العدل ، النبوة ، الإمامة ، وأخيراً المعاد في يوم القيامة .

في هذا تمرين جيد للطفل حتى يبلغ سن السادسة عشر ، حيث يجب أن يدرك جيداً معنى « لا إله إلاّ الله » . وفي مثل هذا العمر الذي لا يزال فيه الفتى والفتاة ينهلان من منهل العلوم المختلفة ، من الضروري أن يصلا إلى مرحلة اليقين المطلق بقولهما « لا إله إلاّ الله » .

وفي سن التكليف ، فأول ما يجب تعلمه هو علم التوحيد ، والعلم

بصفات الله ، واليقين بوجود الله ـ عزّ وجلّ ـ في كل مكان ﴿**أحاط بكل شيء علماً**﴾ .

«إلهي أنت العالم القادر البصير السميع » واليقين المطلق هو حالة تختلف عن حفظ الفتى لهذه المعاني ، دون فهم وإدراك .

اليقين المطلق بالأصول الحقيقية :

جوهر الدين يتلخص في ﴿**لتعلموا أن الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ ، وأن الله قد أحاط بكلّ شيءٍ علماً**﴾[1] يجب تدريب الطفل وتلقينه ، على الإيمان بهذه المعاني ، والوصول إلى مرحلة اليقين المطلق بها .

فالله ـ عزّ وجلّ ـ مع الإنسان دائماً ، وفي كلّ لحظةٍ من لحظات حياته ، وسواء أكان وحيداً أم في جمعٍ من الناس . ويجب أن يدرك الفتى بأن اليقين بذلك هو واجبٌ عليه ﴿**هو السميع البصير**﴾ .

وعلى الفتى أن يجدّ في كسب العلم ، والعلم بعدل الله المطلق ، واليقين من عدالة الله ، وأن رحمته واسعة تشمل الجميع . فأول آية في القرآن تبدأ بكلمة الرحمة .

وكذلك الأمر بالنسبة لبقية أصول الدين كالنبوة والإمامة والمعاد . وبطبيعة الحال ، فان اليقين واجبٌ على الجميع . فالقرآن هو كلامُ رب العالمين . والعلم بالإمامة واجبٌ ، وإن كان ذلك لا يعني حفظ أسماء الأئمة عليهم السلام بالترتيب .

وعلى المؤمن ـ أيضاً ـ الإستفادة من علم العالم ، وأن يعلم بأن طاعة الأئمة واجبة علينا . فعلى سبيل المثال ، لا يكفي أن نعرف بأن الحجة (عج)

---

(١) سورة الطلاق ، الآية : ١٢ .

سيظهر ليملأ الأرض عدلاً ، بل الواجب أن نعرف أن الحجة ابن الحسن (عج) هو حجة الله وأن أمره ونهيه هو أمر الله ونهيه .

كما يجب تلقين وتعليم المسلم ومنذ الطفولة كل ما يختص بالمعاد ، ويوم القيامة ، ووجود الصراط المستقيم ، وكتاب الأعمال والإيمان بأن أي عمل أو كلام ، وأي شاردة وواردة سيتم تسجيلها من قبل المكلفين الموكلين بذلك ، نُسأل ونحاسب عن كل ذلك في يوم القيامة . ولا ينبغي أن ننسى تعليم أولادنا كل ما يختص بالعدل الإلهي المطلق ، وأن كل صاحب حق سيأخذ حقه في يوم القيامة .

المسلمون اليوم والقرآن :

في صدر الإسلام كان خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله يأمر المسلمين بتعليم القرآن لكلّ من يدخل في دين الإسلام ، وذلك ليبلغوا مرحلة اليقين الكامل به . وكلّ مسلم يقرأ القرآن بدقةٍ ويتمعن سيجد أدلة وبراهين لا تعدّ ولا تحصى حول المعاد ويوم القيامة . إلّا أن بعض المسلمين في أيامنا هذه يقرؤون سورة الواقعة كل ليلة بعد صلاة العشاء طلباً لسعة الرزق . ولو أنهم أمعنوا النظر في كلّ آية من آياتها الشريفة لأصبح لديهم يقين كامل بالمعاد .

الإهتمام بنشر الحقائق :

للأسف الشديد . ما أن يرتفع صوت شيطاني ما ، حتى يسعى المبلغون والداعون إلى إيصاله إلى الناس . أما إيصال صوت الله وحكمه ، فهذا ليس من شأنهم ، فالدعاية المضللة تهلل للشعر والرقص والفنون المنحلة الأخرى ، وأينما تذهب تسمع مثل هذه الترهات ، وحتى من ألسنة الأطفال[1] الواجب

---

(١) تعود هذه المحاضرة إلى سنوات ما قبل الثورة الإسلامية عندما كان المذياع والشاشة الصغيرة مسخرات لخدمة أعداء الإسلام والترويج للفساد .

يستدعي كلّ أُمّ مسلمة تعليم صغيرتها أصول وفروع الدين . وخطأ الأُم ناجم عن عدم اهتمامها بالمسائل الفرعية ، فكلّ أُمّ يجب أن تهتم بتعليم بناتها مسائل الحيض والنفاس والإستحاضة .

فتعليم الأبناء أصول ومبادىء الدين أوجب وأهم من كلّ التفاصيل الصغيرة الأخرى كالإهتمام بملابسهم وغذائهم . إن واجبنا كمسلمين يدعونا إلى تعليم أبنائنا ، وبناتنا كل ما يتعلق بديننا الحنيف من التوحيد والنبوة ، وأسماء الله الحسنى ، وكافة الفروع الأخرى ، وكذلك الأحكام الشرعية للقضايا اليومية التي تواجهنا .

أولوية طلب العلم من طلب المال :

في الفصول الأولى من أصول الكافي ، نقل عن أمير المؤمنين عليه السلام : « إن طلب العلم أوجب من طلب المال » فان استطاعة الإنسان أو عدم إستطاعته الذهاب إلى دكانه أو محل عمله غير مهم ، إلّا أنه من الواجب طرق أبواب بيت العالم والفقيه .

إذهب أيها المؤمن إلى بيت أحد العلماء واطرق بابه ، وانظر كم من الناس قد حضروا للإستفادة من علمه ؟

نعم . من غير المستبعد أن يذهب البعض إلى بيت العالم الفقيه لطلب الإستخارة أو الإستفسار عن بعض الشؤون الثانوية ، ولكن ليس من أجل طلب العلم والتعلم .

إن الواجب يتقضي من المسلمين طلب العلم من العالم **﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾**[1] .

---

(١) سورة النحل ، الآية : ٤٣ وسورة الأنبياء ، الآية : ٧ .

العلوم الأخرى ذات فضل وليست إنسانية :

الناس ثلاث : إما عالم أو متعلم أو من الهمج الرعاع ، الذين لا يستفيدون ولا يفيدون الإنسانية شيئاً ، « وهل الناس إلّا نحن وشيعتنا » .

فالإنسان هو الموحّد ، وليس عالم الذرة أو جراح القلب .

نعم . إن لهؤلاء فضل كبير لا ينكر في أعمالهم واختراعاتهم واكتشافاتهم ، إن لم تستخدم بهدف فناء الإنسان . إلّا أن الإنسان يجب أن يكون قبل كل شيء موحّداً ، ومدركاً للعظمة الإلٰهية .

قيمة العلم تعتمد على موضوعه :

تتجلى عظمة أي علم في مدى أهميته وقيمه . فالعالم بعظمة الله عظيم . والإنسان يكون عظيماً حسب أهمية وقيمة العلم الذي لديه ، ولن يصبح إنساناً حقيقيّاً إلّا عندما يكون عالماً وعارفاً بالله تعالى .

ولهذا نقول : ليس للحيوان قيمة ، لأنه أصغر شأناً من أن يدرك عظمة الخالق . والإسلام يدعو أتباعه إلى أن يكونوا عظماء عالمين بحقيقة هذا الوجود وأسراره ، المنشأ والمعاد ، ويدركوا حقيقة أنفسهم ويكونوا من أهل العلم .

تحصيل العلوم الدينية واجبٌ :

« طلب العلم فريضة على كلّ مسلمٍ ومسلمةٍ » إن تعلم العلوم الدينية ، أصول الدين وفروع الدين ، هو واجبٌ على كلّ مسلمٍ . فكيف يستطيع المسلم طرق أبواب هذا العلم ؟

في بداية ظهور الإسلام ، ونظراً لقلة عدد المسلمين ، كان المسلمون يطلبون هذا العلم من منبعه الأصلي ، أي من الرسول صلى الله عليه وآله .

إلّا أنه وبعد اتساع نطاق الإسلام ، وازدياد عدد المسلمين وبسبب

المسافات الشاسعة ، التي كانت تفصل بينهم وتنوّع أعمالهم بين الزراعية والتجارية ، وتربية الحيوانات ، أصبح من العسير أن يطلب جميع المسلمين العلم من منبعه الأصلي ، فنزلت الآية القرآنية الموسومة بآية (النفر) لحل هذه المشكلة ﴿**وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كلّ فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون**﴾[1]

الحوزات العلمية لارشاد المجتمع :

بعد الرسول صلى الله عليه وآله فان حكم هذه الآية الشريفة باق إلى يوم القيامة . وهذا الحكم واجبٌ وساري على كلّ المجتمعات الإسلامية ، حيث ينص على إرسال مجموعة من أفراد المجتمع إلى مركز العلم وثقله ، أي إلى الإمام المعصوم عليه السلام لتتفقه في الدين ، ومن ثم تقوم بتبليغه إلى بقية أفراد المجتمع .

فتلامذة الإمام الصادق عليه السلام بلغ عددهم أربعة آلاف شخص أتوه من مختلف البلدان والأمصار الإسلامية .

أما اليوم وفي غيبة صاحب الزمان ـ أرواحنا فداه ـ فلا يزال حكم هذه الآية الشريفة سارياً ، وعلى المجتمعات الإسلامية أن تقوم بتطبيقه . والواجب هنا كفائي ، حيث يجب ضمان الحاجة الدينية لكلّ مدينة وحسب عدد سكانها .

طلاب العلوم الدينية لصلاح دين الناس :

لنأخذ مدينة شيراز الإيرانية على سبيل المثال ، حيث كانت تضم في الماضي اثنتي عشر محلة ، ولم يتجاوز عدد سكانها المئة ألف نسمة . أما

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ١٢٢ .

شيراز اليوم فقد بلغ عدد سكانها ثلاثمائة ألف نسمة ، فكم عالم ديني . أو كم فقيه تحتاج كل محلة من محلات مدينة شيراز ؟

ينبغي على المسلمين إعداد الفقهاء حسب حاجة كل مدينة ، واختيارهم من بين ذوي الكفاءة والإستعداد ، لدراسة العلوم الدينية ليمارسوا وظيفتهم في ما بعد في توجيه الناس ، وتحذيرهم من عذاب يوم القيامة .

وكل محلة تتحمل مسؤولية وجود ، وعدم وجود فقيه لديها ، وعليها أن تشجع شبابها على دراسة العلوم الفقهية والدينية . نعم على المسلمين أن يطرحوا عنهم الأفكار المادية والدنيوية ، والإتجاه نحو دراسة العلوم الدينية لاصلاح دينهم وبعد ذلك يأتي مسألة إصلاح دين الآخرين .

صعوبة الحصول على درجة الفقيه :

بعد أربعة عشر قرناً على ظهور الإسلام ، أصبح من الصعب جدّاً اليوم الحصول على درجة الفقيه ، ففي زمان الرسول صلى الله عليه وآله والأئمة الأطهار عليهم السلام كانت هذه المسألة أسهل بكثيرٍ مما عليها الآن ، ولا تحتاج إلى مشقةٍ وتعبٍ كبيرين . آنذاك كان طالب هذه العلوم يراجع الإمام باستمرار ويسأله عما يصعب عليه فهمه من المسائل الشرعية والفقهية .

وقد تطول مدة زيارة طلاب الفقه للإمام إلى عدة شهور في السنة ثم يحصل بعدها على درجة الفقيه .

أما اليوم فعلى كلّ من يرغب في دراسة العلوم الدينية والفقهية والتخصص بها أن ينبذ أولاً كل تعلق له بالماديات . وبعد ذلك ينبغي عليه دراسة العديد من العلوم التمهيدية ، كالصرف والنحو والبلاغة . وقضاء سنوات عديدة في دراسة المعاني والبيان ليستطيع إدراك رموز القرآن الكريم .

بالإضافة إلى ذلك على طلبة العلوم الدينية والفقهية دراسة علم الكلام

وتفسير القرآن ليستطيعوا في المستقبل تفسير وتدريس القرآن لعموم الناس .

أما علم الرجال ، فهي الدراسة التي تعدّ طالب الفقه لمرحلة إصدار الفتاوي ، وعلم الدراية ، فغايته رضا الله ، والدراسة في سبيل الله .

الطلاب أحباء الله :

رِزق الطلاب على الله ، حيث نقلت لنا الكثير من الروايات ما معناه : إن الله يرزق الجميع عن طريق الأسباب ما عدا طلاب العلم . فطلبة العلم محبوبين عند الله « ألا وإن الله يحبّ بغاة العلم » .

فالويل لطالب العلوم الدينية الذي يجمع بين هذه الدراسة وبين دراسة علوم أخرى بهدف إيجاد وظيفة أخرى له لدى دوائر الدولة ، فهذا الطالب قد تسلل الشك إلى قلبه في أن الله سيرزقه . وبمعنى آخر : فقد تزعزع إيمانه وعقيدته . ومن ضعف إيمانه بهذه الصورة ، كيف سيستطيع ممارسة وظيفته الشرعية في إرشاد المجتمع ، وهدايته عندما سينتمي إلى الفئة التي تعتلي المنبر ، بهدف جمع المال .

وهذا هدفٌ ماديٌّ محضٌ يدمر كلّ هدف سامي من الأهداف التي يصبو إلى تحقيقها أي دارس للعلوم الدينية .

اقتران طلب العلم بالتقوى :

من الشروط الواجب توفرها في دراسة العلوم الدينية الإلتزام بالتقوى وأن لا يصدر عن الطالب حرام ولا يفوته واجب .

اما الإلمام أو عدم الإلمام بلغة أجنبية ، فهذه مسألة ثانوية غير هامة . أما طالب ويغتاب ؟ طالب ويلغو في الكلام ؟ طالب ولسانه بذيء ويتحدث بالقبيح ويسيء الظن ؟ كيف إذن سيرشد مثل هذا الطالب الناس في المستقبل ويهديهم إلى نور العلم والإيمان . إن جوارح مثل هذا الطالب غير الملتزم مظلمة ، ذلك

أن العلم والتقوى متلازمان . وكما قال أحد العلماء الكبار بأن على الفقيه أن يصل إلى أسمى المراتب الخلقية لكي يستطيع التعامل مع الدرجات والمراتب الأقل منه .

وإن كان الناس ملزمون بالواجبات ، فان الفقيه ملزمٌ بالمستحبات . أما أذا ارتكب الفقيه عملاً حراماً ، فان الناس سيخرجون من الدين ، فعدم المشاركة في صلاة الجمعة يعتبر من الذنوب الكبيرة حقّاً . فكيف سيدعو طالب العلوم الفقهية الناس مستقبلاً إلى أداء صلاة الجماعة ، وهو يعرض عنها الآن .

الفصل التاسع

العلم الإجمالي بالله غير كاف :

﴿فاعلم أنه لا إله إلاّ هو واستغفر لذنبك﴾ .

العلم الذي هو واجبٌ عيني على كلّ مكلفٍ بالغٍ وعاقلٍ ، ولا يقبل عذر الجاهل به هو علم معرفة الخالق ـ عزّ وجلّ ـ .

فعلى المكلف أن يصل إلى مرحلة ينعدم فيها الخوف والشك من ارتكاب الذنوب ، والشك في صحة الأعمال . وبمعنى آخر : على المكلف أن يبلغ المرحلة التي يكون فيها على يقينٍ كاملٍ من أن « لا إله إلاّ الله » وهي حدود هذا العلم .

فهل يكفي العلم الإجمالي بالله سبحانه وتعالى ؟ أم إن العلم التفصيلي واجبٌ ؟

بدون شك ، إن العلم الإجمالي غير كاف ولا يفي بالغرض .

فكل عبدة الأوثان والبقر والنجوم ، واليهود والنصارى ، وكل الملل

والأديان الأخرى تعتقد بوجود الخالق . ولهـذا السبب فان العلم الإجمـالي ليس بكافٍ حيث يجب معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله .

ومن المستحيل معرفة حقيقة الـذات الإلٰهية ، إلاّ أنـه من الممكن معرفـة الصفات والأسماء ، لأنها صفات تتمتع بالثبات والأزلية ويستطيع الطفل المسلم أن يتعلمها ، وهو بعد في المراحل الأولى من دراسته .

قال الشاعر :

إنك العالم القدير الحي المريد المدرك قـديـم منـذ الأزل صـادق الـكـلم

ينبغي على كـلّ مسلمٍ أن يكون لـديه يقين بصفـات الله سبحانـه وتعـالى الأزلية ، وأنه خالق الأكوان كلها وأن قدرته لا نهائية .

هل ينبغي الجهل للخالق ؟ :

إحدى مظاهـر قدرة وقـوة الخالق المنـظومة الشمسيـة وحركـة الأفلاك في السماء ، فعلم الخالق يحيط بكلّ شيءٍ ﴿هو السميع العليم﴾ و ﴿إنه كان عليماً حكيماً﴾ . وقد ذكر القرآن الكثير من علم الله وقدرته ، وقوة الخالق اللامتنـاهية والمطلقة . فالبصر والسمـع هما من نعم الله تعـالى ، إلاّ أنه « العـالم المطلق » و « السميع المطلق » و « البصير المطلق » .

فهل يمكن أن يمنحنا الخالق نعمة البصر وهو لا يبصر ؟ .

أعطتنا سورة تبارك الدليل في جملةٍ واحدةٍ ﴿ألا يعلم من خلق﴾ .

وإن لم يملك فكيف يعطي :

يصل عدد أجزاء العين الإنسانية إلى ثلاثة ملايين جزء . فمن وضع جهـاز التصوير العظيم والدقيق هنا في عين الإنسان ؟

وأذن الإنسـان أيضـاً مـركبـة من مـلايين من الأجـزاء ، وتمـارس وظيفـة

السمع . فهل من الممكن أن ينعم عليها سبحانه وتعالى بهذه النعمة العظيمة ، ويكون فاقداً لها ؟

تتجلى كل هذه الصفات بكمالها المطلق لدى الباري سبحانه وتعالى ، والنقص يكمن فينا . فسمعنا ناقص ، لأن الصوت يحتاج إلى ظروفٍ خاصةٍ ومعيّنةٍ ليصل إلى الأذن . أما السمع المطلق فلا يحتاج إلى واسطةٍ ، ويسمع بدون نقص « بكل شيء عليم . قدير . سميع . بصير » .

العلم والقدرة أساس أسماء صفات الله :

قال الشاعر :

الكون تحت أمرك ونحن قائمون بك
وأنت قائم بذاتك منك الوجود والحياة

واكتسب منك التراب الضعيف القدرة والقوة .

الخالق الباري يمنح الحياة لكل حي ، فهو الحي القيوم ، وبقاء كل وجود مرتبط بوجوده .

وينبغي لكلّ مسلم الإيمان بهذه المعاني والحقائق سواء أكان أميّاً أم متعلماً ، فمن خلال اعمال الفكر في الخلق والخالق ، يصل الإنسان إلى عمق هذه المعاني والصفات الرّبانية .

والأساس في أسماء الله تعالى وصفاته تتجسد في العلم والقدرة . وكل الصفات الأخرى تتشعب منها .

الذي أعطى الأسنان أعطى الخبز :

وبعبارة أخرى : على كلّ مسلم أن يؤمن من أعماق وجوده بأن الله تعالى هو الرزاق العليم . فمن المستحيل أن يخلق الله تعالى موجوداً ، ثم لا يبعث

إليه برزقه . كلا إن من أعطى الأسنان ، أعطى الخبز . والوجود كله هو شهادة حية على أن الله هو الرزاق العليم .

من الصفات الإلٰهية الأخرى « يا كافي المهمات » فالله سبحانه وتعالى هو منجي الضعفاء . والأمور كلها تعود إليه ، سواء أكانت كلية أم جزئية . فالإنسان لا يستطيع أن يقرر العمل لوحده ، فكل عمل يعتمد على إرادة الله . ولذلك جاء في القرآن الكريم ﴿**ولا تقولن لشيءٍ إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله**﴾[1] .

فمن الواجب على المسلم أن يذكر إرادة الله ومشيئته ليدل على معرفته به .

إرادة الله تفوق كل الإرادات :

ليس للإنسان أي استقلال ، فروحه وحياته بيد الله ، وقلبه ينبض بقدرته وإرادته . فغالباً ما يقرر الإنسان ، لكنه يعجز ، ولأي سبب من الأسباب عن التنفيذ ، وحتى لو كان الإنسان ذا إرادة حديدية ، فانه يعجز أحياناً عن تنفيذ ما صمم عليه ، لوقوع حادث أو حضور الموت ﴿**إلّا أن يشاء الله**﴾ . فالقدرة المطلقة لله سبحانه ـ عزّ وجلّ ـ والإنسان يعجز عن العمل بإرادته وحده . ولهذا على المسلمين أن يقرأوا القرآن الكريم كثيراً ، ويتعلموا أسماء الله وصفاته ، والعلم الذي نتحدث عنه هنا هو العلم الذي يحقق الأعمال ، والذي هو منشأ الأعمال . فان لم يكن هناك علم وإيمان يكون هناك جهل مطبق ، إلّا أنه إذا ترافق العلم والعمل معاً ، فان القلب يضاء بنور الإيمان ، وإلّا فلن يكون هناك سوى الجهل والظلام .

نأتي الآن على ذكر رواية حول مدى ارتباط العلم بالعمل .

---

(١) سورة الكهف ، الآية : ٢٣ .

الغلام الحبشي وقلبه الفطن :

ذكر تفسير النيشابوري أن غلاماً حبشياً قد جاء المدينة المنورة وأعلن إسلامه على يد الرسول صلى الله عليه وآله وكعادته أمر محمد صلى الله عليه وآله بقية المسلمين أن يعلموا الفتى ما تيسر من القرآن الكريم ﴿**فاقرؤا ما تيسر من القرآن**﴾[1] .

وبعد أن تعلم الغلام قدراً يسيراً من الآيات القرآنية سأل رسول الله صلى الله عليه وآله عن معنى ﴿**السميع البصير**﴾ فأجابه خاتم الأنبياء بأنه ﴿**لا تخفى عليه خافية**﴾ فكل ما يخفيه الإنسان في قلبه ليس بخاف على الله . فقال الغلام : إذن عندما ارتكبت ذنباً ، فقد رآني الله تعالى ، ثم صاح وافضيحتاه .

الشعور بالذنب دليل العلم :

يتحقق نور العلم مدى ما ترك آثاره على عمل الإنسان ، فعندما علم الغلام الحبشي بأن الله يسمع ويرى خجل واستحى من ماضيه ، فالله هو السميع البصير . فالذي يعرف بأن الله عالم بخفايا قلبه ، يجافي الرياء ، ويحاول أن يكون مخلصاً وصادقاً في أقواله وأعماله . ويتبع العلم إنجاز عمل مفيد .

وإن حفظ الإنسان القرآن الكريم كله ، ولم يجد هناك ما يدفعه على العمل ـ رغم كثرة الأدلة ومعرفته بطرق الإستدلال المتعددة ـ فلا فائدة من علمه . فنور العلم يجب أن ينعكس على أعمال الإنسان .

العمل هو دليل العلم :

من أراد أن يتأكد من أن نور العلم والإيمان قد ملأ قلبه ووجدانه يجب أن ينظر إلى دخيلة نفسه ، فهل يشعر بالخجل أمام الله ـ عزّ وجلّ ـ ؟ هل هو

---

(١) سورة المزمل ، الآية : ٢٠ .

مخلص في عمله ؟

فالرياء والنفاق يعكسان الجهل بـالله ، وأن القلب لم يتبين بعد سبيله إليـه تعالى .

قد يردّد المسلم كثيـراً هذا الـدعاء « إلٰهي هب لي نـور العلم ، وأنر قلبي بضوء العلم ، وأعوذ بك من علم لا ينفع » ويكون المسلم هنا قد أتمَّ حجته دون أن يستفيد من علم هو منشأ كل الأعمال . إن أكبر ، وأسهـل طريق لكسب نـور العلم والمعرفة ـ كما بيّنه لنا سبحانه وتعالى ـ هو ولاية محمد صلى الله عليه وآله وآل محمد عليهم السلام .

بركة ولاية آل محمد عليهم السلام في أبعادها المختلفة :

أصل كل نعمة هو ولاية آل محمد عليهم السـلام والإيمان الخـالص بهذه الـولاية ، والتي هي بحـدّ ذاتها دليـل قاطـع على النعم الإلٰهيـة . وحب محمـد وآلـه ، يعني إطاعـة أوامـرهم والإستضـاءة بشعـاع أنـوارهم . فهم منجم العلم الذي يفيض بأنواره على المسلم كي تسمو أخلاقه وتستقيم عقائده وأحكامه .

في حديثٍ للرسول صلى الله عليـه وآله إن جبـرائيل عليـه السلام قـال له ـ في ليلة المعراج : « لو اجتمع الناس على محبة عليّ عليه السلام لما خلق الله النار » . نعم فحقيقة الأمر أنه إذا تـرك الناس تعلقهم بـالدنيـا ولذاتهـا ، وتعلقوا بحب عليّ عليـه السلام لمـا كـان هنـاك فسـادٌ ، ولا إرتكـابٌ للمعـاصي . فلو استجـاب الناس لأوامـر أمير المؤمنين عليـه السلام في تـرك هوى النفس وعـدم الإنصيـاع إلى الشيـطان ، لسَمَت النفـوس ، وعـظمت الأعمـال ، وتـطهـرت الضمـائر ، ولن يكـون هناك حـاجة لجهنم ، لقـد خلق الله تعـالى جهنم لسبب إرتكاب الإنسان للمعاصي والذنوب والنفاق والكفر . وإن حلّ نور الولايـة محل الظلمات فستنتفي الحاجة إلى جهنم .

شمس الولاية في قلوب المؤمنين :

لو أصبحت القلوب مرآة ، وانعكاساً للصفة في مقابل النور الإلهي فستظهر آثار المحبوب على المحب . والله قد جعل صاحب الزمان (عج) مبدأ لجميع الخيرات والنعم ، وكل من يتوجه إليه بكلّ قلبه ويضع الدنيا وما فيها جانباً ، فليكن على يقين تام بأن آثار هذا العظيم ستنعكس عليه ، وأنه سيشمله بعطفه ورعايته ، ويعزز إيمانه وعلمه . نعم يكفينا أن ينظر الإمام إلى قلوبنا بعطفٍ .

يا من بنظرة جعلتم التراب كيمياء[1] هل لنا أن نأمل منكم بنظرة عابرة

الحكمة في الولاية :

قال الرسول صلى الله عليه وآله : « من أراد الحكمة فليتول أهل بيتي » . فكل من يرغب أن تكون الحكمة من نصيبه ، فليحب أهل البيت عليهم السلام « ومن أراد التوكل فليتول أهل بيتي ومن أراد أن يدخل الجنة بغير حساب فليتول أهل بيتي » .

ومتى آمن المسلم بولاية أهل البيت عليهم السلام فسينعكس نور الأئمة عليه .

إن المسلمين مقصرون في حب أهل البيت والإيمان بولايتهم ، حيث مالت قلوبهم إلى الدنيا وإلى ولاية الشيطان .

وفي الحقيقة ، فان كل مسلم يلتزم بأوامر الأئمة الأطهار عليهم السلام سيدرك عاجلاً بأن نور علمهم قد أضاء قلبه وانعكس هذا النور على أعماله ، فأصبحت مثمرةً ومفيدةً .

---

(١) الكيمياء هنا هي المادة الخيالية التي تحول النحاس ذهباً .

الفصل العاشر

إستحياء أخوة يوسف منه :

إستناداً إلى إحدى الروايات ، فقد سئل الإمام الصادق عليه السلام عن أخوة يوسف الذين اعتذروا منه لما بدر عنهم ؟ فقبل يوسف عليه السلام عذرهم فوراً ﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم﴾ وكان يوسف قد بالغ في الإحتفاء بهم ، والتعبير عن مدى حبه وإعزازه لهم ، حيث شاركهم في طعامهم وجلساتهم وأسفارهم . وفي يوم من الأيام سأله أخوه الأكبر يهودا أن يعفيهم من تناول الطعام معه . فلما تساءل يوسف عن السبب . أجاب يهودا : كلما حضرت عندنا تذكرنا ما عملناه بحقك ، فنشعر بخجلٍ شديدٍ ، وعندما نلمس مدى محبتك نتألم .

فقال يوسف عليه السلام : إن زيارتكم هي شرفٌ لي . فقبل أن تأتوا مصر ، كان أهل هذه البلاد يجهلونني ، ويعتقدون بأنني مجرد غلام ابن غلام قد استطاع الوصول إلى سدة الحكم . أما وقد جئتم مصر ، فقد أدرك الناس بأنني ابن نبي ، فزادني ذلك شرفاً وكرامةً

موقف يعقوب عليه السلام من أبنائه :

إلاّ أنه عندما أحاط أخوة يوسف بأبيهم يعقوب عليه السلام وطلبوا منه العفو عمّا اقترفوه بحق أخيهم ، وسألوه أن يستغفر لهم الله ، وعدهم يعقوب أن يفعل ذلك ﴿قال سوف أستغفر لكم ربي﴾ .

فهو لم يعد أبناءه بطلب المغفرة لهم من الله سبحانه وتعالى على الفور .

وهناك رواية تقول : إنّه انتظر حلول يوم الجمعة ليدعو لهم وقت السحر .

رقة قلب الشباب :

نعود إلى السؤال الذي وجه إلى الإمام الصادق عليه السلام : فيعقوب ويوسف عليهما السلام كلاهما من الأنبياء ، فلماذا استجاب يوسف لطلب إخوته فوراً ؟ بينما وعدهم أبوهم يعقوب بأن يفعل ذلك فيما بعد ؟

وكما جاء في بحار الأنوار ، فان الإمام عليه السلام أجاب على السؤال بقوله : « إن قلب الشاب أرقّ » .

فعلى الشباب المسلم أن يدرك قيمة شبابه ، وأن يحذر الوقوع في حبائل الشياطين من الإنس والجن .

فالمجلات الرائجة ، وما تنشره من الصور الخليعة ، هي مكائد لإيقاع الشباب في حبائل الإثم والخطيئة عندما يكون الإنسان شاباً يستطيع مزاولة كل الأعمال ، والوصول إلى أعالي درجات الإيمان ، وبقلبٍ طاهرٍ ، وما دامت النفس طاهرةً لم تتلوث بعد بالشوائب والذنوب ، فانها قادرةٌ على كسب درجة اليقين ، فلا يهدر الشاب قوته ونشاطه عبثاً .

حق محمد صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام أكثر من حقوق الوالدين :

من جملة الأسئلة التي ستطرح علينا يوم القيامة ، ما يتعلق بحق محمد وآله الأطهار ، ذلك أن حق محمد صلى الله عليه وآله على المسلمين يفوق حق الوالدين مئة مرة . نعم يبذل الوالدان جهداً كبيراً في تربية أبنائهم والمحافظة على صحتهم ، في حين أن محمداً وآله عليهم السلام يربّون أرواحنا ، ويطهرون ذواتنا من التلوث الباطني . والذي لا تستطيع سبعة أبحر أن تغسل شوائبه . إذن : حب محمد صلى الله عليه وآله الأطهار عليهم السلام ، والإيمان بولايتهم يطهر أرواحنا من ما علق بها من أوساخ الدنيا .

لهم حق الخلود على المسلمين :

« وشيعتك على منابر من نورٍ ، مبيضة وجوههم حولي في الجنة وهم جيراني » ـ دعاء الندبة ـ .

ولولا تعاليم وإرشادات خاتم الأنبياء عليه أفضل الصلاة والسلام ، وأمير المؤمنين عليّ عليه السلام ، لما كان لدى المسلمين أي إطلاع على العلوم والحقائق الأزلية ، الثابتة ، كالمبدأ والمعاد . ولما تعلم المسلمون ما هو الطريق الأمثل لتحقيق وبلوغ السعادة .

ولهذا نقول : إن حق محمد صلى الله عليه وآله ، وآله عليهم السلام علينا كبير جدّاً . فإذا كان للوالدين حق على أولادهم في هذا العالم الفاني فان حق محمد صلى الله عليه وآله وعليّ عليه السلام سيتجلى في الحياة الأبدية الخالدة التي لن نستشعر حلاوتها وطيبتها إلا من خلال بركتهم علينا .

لقد قضى الإمام علي عليه السلام حياته في إرشاد الناس وهدايتهم ، وخدم عموم المسلمين من كل قلبه ووجدانه ، وبدون أن يتوقع شيئاً بالمقابل .

فالويل إذن لمن لا يؤدي حقه . لقد كان يقرأ للمسلمين في سوق الكوفة

سوراً من القرآن الكريم . ومنها هذه الآية الشريفة ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾[1] .

لا يجوز هدر الحق :

الدنيا تغري الإنسان بتكديس أمواله ، ومن ثم على المسلم أن يتجنب البخل والحرص . وإنسان اليوم مادي يعبد المال ، ويحرص على زيادة ثروته . أما العواطف والمشاعر الإنسانية السامية . فقد وضعها جانباً ، بل هو لا يتردد عن ارتكاب أيّة جناية أو خيانة في سبيل تحقيق هذا الهدف أي جمع المال وتكديسه .

والإنسان الذي تسيطر عليه شهوةُ جمع المال لا يرتدع عن مزاولة أيّ عمل دنيء . وحقير ، حتى لو كان في ذلك خطر محقق لأرواح أبرياء . وليس بعيداً عنّا أولئك الذين يلجأون إلى الغش في صنع الأدوية . ومثل هؤلاء تخلو قلوبهم تماماً من الإيمان بالله ، فالهم الأكبر لديهم هو جمع المال وبأية وسيلة كانت .

سعى الإمام عليّ عليه السلام حتى آخر يوم من عمره إلى خدمة الناس ، وإظهار الحق والتشجيع على اتباعه ، فلا يجوز ـ والحال هذا ـ هدر حق من كرّس حياته في سبيل هذا الهدف السامي ، ولأجل منفعة المسلمين .

أللهم أنت أعلم بعجزنا عن أداء حق عليّ عليه السلام . أللّهم ارفع من مقامه ، وارحم شيعته ، وتقبل أعمالهم ببركته .

الإمام عليّ عليه السلام قسيم الجنة والنار :

في حديثٍ عن الأصبغ بن نباتة ، نقلاً عن الإمام عليّ عليه السلام أنه

---

(١) سورة القصص ، الآية : ٨٣ .

قال : « كنت يوماً مهموماً ومغموماً ، فجائني رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال : يا عليّ لقد نقل لي جبرائيل أحداث يوم القيامة ، وقال : في يوم القيامة سينصب لك منبر في المقام المحمود ، وهو المقام الذي يجلس فيه جميع الأنبياء عليهم السلام والمؤمنون ، وتجلس أنت في أعلى هذا المنبر ، ويتلوك أهل البيت عليهم السلام . وسائر الأنبياء ، ثم يأتي رضوان خازن الجنة ، ويقول : قد أمرني الله تعالى بتقديم مفتاح الجنة إليكم . ثم يأتي مالك خازن النار ، ويعطي مفاتيحها إليك .

وبعد ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله للإمام علي عليه السلام : وبدوري سأعطي المفاتيح لك ، وتكون أنت الذي يقف عند بداية الصراط المستقيم فترسل أحباءك إلى الجنة وأعداءك إلى النار (قسيم الجنة والنار) وكل من كان من أصحاب الجنة أدخله الإمام عليه السلام فيها .

يد الله الباسطة :

الرحمٰن خالق العالم والكون كله ، ليس بجسمٍ ملموسٍ ـ وهو منزه عن ذلك ـ وكل الأعمال الهامة لدعائم الوجود بواسطة مظاهر ذاته العليا ، والأعمال الإلٰهية تتم بواسطة الإمام عليّ عليه السلام « يد الله الباسطة » فهو يد نعم الله وعطاؤه « السلام على نعمة الله على الأبرار ، ونقمته على الفجار » .

أفضال أبي طالب :

نقل عن مصادر السّنّة والشيعة قولها أنه في أحد الأيام جاء الإمام عليّ عليه السلام أحد أعدائه ، وقال له بأن أبوك أبا طالب قد مات وهو كافرٌ ، وهو الآن في جهنم . فنهره الإمام عليه السلام قائلاً : « كيف أكون قسيم الجنة والنار وأبي في النار ؟؟ » .

نعم ، لقد بذل أبو طالب كل ما في وسعه في سبيل الإسلام والحفاظ

على رسالة خاتم الأنبياء . فكيف لا يكون مسلماً ، فالوثائق التي لا تقبل الشك والاشعار التي لهذا العظيم تؤيد ، وتثبت كلها بأنه كان مسلماً إلاّ أنه كتم إيمانه ، ولم يجهر به ، للحفاظ على منزلته لدى قومه ، ومن ثَمَّ ليستطيع الدفاع عن ابن أخيه صلى الله عليه وآله .

محبة آل البيت عليهم السلام :

في يوم القيامة يلتحق محبوا آل البيت ومريدوهم بهم عليهم السلام ومن ثم يلتحق الجميع بخاتم الأنبياء كالمغناطيس الذي يجذب الإبرة إليه ، والإبرة تجذب بدورها إبرة أخرى ، وهكذا ، فالكل ينجذب نحو المغناطيس .

فكل شيعة علي عليه السلام على ارتباط وثيق بآل البيت عليهم السلام ، ومن ثم على اتصال بأبيهم عليهم السلام الذي يتصل بدوره بالرسول صلى الله عليه وآله . فمحبة آل البيت تجذب الجميع إلى مكانٍ واحدٍ ، حيث تعهد الله سبحانه وتعالى بجمع كل محب مع محبوبه في يوم القيامة . ندعو الله أن يضاعف من حب أهل البيت عليهم السلام في هذه القلوب .

أنوار قبة الإمام عليه السلام :

قال الشيخ ملاّ فتح علي : رأيت في عالم الحقيقة النور يسطع من قبة الإمام عليّ عليه السلام . على كلّ قبور وادي السلام . وهذه الأنوار تضيء كل قبر من هذه القبور .

إلٰهي فاجعل قبورنا إلى جانب قبر الإمام عليّ عليه السلام ، والإمام عليّ عليه السلام أعظم وأجل من أن يترك محبه وحيداً ، وبعظمته أيضاً لن يترك أحداً من شيعته يحترق بنار جهنم .

الفصل الحادي عشر

نتائج عدم الإيمان :

اليقين بالموت وحتمية الجزاء ـ عقيدةً وعملاً ـ يؤدي إلى إصلاح البشر ، وبعبارةٍ أخرى ـ فيهما خير للإنسان وصلاحه ، فعدم إلتزام الإنسان وثقل كاهله المحمل بالذنوب ناجم عن عدم إيمانه أو ضعف إيمانه بالآخرة . فالذي يرى الموت قريبٌ منه على الدوام يحاول تجنب عمل الشر خوفاً من مسّه .

والحروب التي شهدها العالم بعد الحرب العالمية الثانية ، كالحرب الكورية ، وحرب ڤيتنام ، وفلسطين هي ثمرة انعدام الإعتقاد بأن قاذف تلك القنابل المميتة هو المسؤول عن قتل الأبرياء الذين تساقطت القنابل فوق رؤوسهم .

وبطبيعة الحال ، لا يهم أبداً هوية المظلوم سواء أكان مسلماً أم يهودياً أم مسيحيّاً ، لأن إيمان الإنسان بيوم القيامة هو الأهم . بينما لا يفهم معظم الناس معنى آخر غير النفوذ والقوة والتسلط . فعلى سبيل المثال : المحافظة على

النفوذ والتسلط الأمريكي هو الهدف الرئيسي ، حتى ولو قتل عشرات الآلاف من الأبرياء من أجل تحقيق هذا الهدف .

السعي وراء الرزق :

النزاعات الشخصية والتزاحم على تحقيق المصالح الشخصية المحضة قد يؤدي أحياناً إلى إراقة دماء الأبرياء . فمثلاً من المعروف أن أكثر حوادث السيارات ناجمة عن التنافس الشخصي بين سائقي السيارات ، وبالتالي فهي ناجمةٌ عن غلبة هوى النفس ، وعدم الإيمان بأن الرزق هو من شأن الله تعالى ـ رغم كثرة النصائح التي تقدم إلى سائقي السيارات بالتخفيف من سرعتهم أثناء قيادتهم للسيارة ، وفي الحقيقة لو كان السائق يتمتع بإيمان كاملٍ بالآخرة ، ومسؤوليته أمام الله ـ عزّ وجلّ ـ لتجنب السرعة .

وهنا يكمن جوهر الدين ، وأساس الدين : اليقين المطلق بالموت وبوجود الثواب والعقاب في يوم القيامة .

أما الكفر ، فهو عدم الإعتراف بالمبدأ والمعاد ، والإعتقاد بأنه لا يوجد بعد الموت سوى العدم المطلق .

حقيقة الموت :

عندما يؤمن الإنسان بأن الموت لا يعني العدم أو الفناء المطلق فلا يفزع ولا يجزع من مفارقة الأهل والأقرباء بالموت . فالموت هو تغيير الإنسان لثوبه الدنيوي أي طرح جسمه ـ المادي الفاني ، الملوث بأوحال الدنيا ـ جانباً وتغييره بآخر أكثر شفافية ولطفاً يجسّد حقيقة الإنسان الأخروية .

نعم . يجب أن يكون لدى المؤمن يقين مطلق بأن للإنسان ذات وحقيقة أخرى غير هذا اللحم والجلد الفانيان . وتلك الذات الإنسانية الحقيقية خالدةٌ وأزليةٌ .

قد ينتقد بعض الجهلة والمدعين عملية تلقين الميت باللغة العربية ، فما فائدة تلقين ميت لا يفهم العربية ، ولم يكن يتكلمها قبل مماته ؟

إن هذه الإنتقادات تمثل في الواقع الجهل المطبق بعالم ما وراء الطبيعة .

إحاطة الروح بعد الموت :

الإنسان ، وهو لا يزال بعد حيّاً في عالم المادة المحدود ، يجهل كل شيء عن الحياة ما بعد الموت ، حيث أن جسمه وروحه لا يزالان مقيدان بأغلال عالم المادة الفاني ، لذلك فهو يجهل ، ولا يعرف سوى ما اكتسبه في هذه الدنيا .

ومتى ما خرج الإنسان عن نطاق الحدود المادية التي كانت تكبل روحه ، فانه يصبح حرّاً طليقاً ، ويفهم أية لغة يخاطب بها .

موضع روح الإنسان بعد الموت قد اختلف عن وضعها عندما كانت مقيدة في عالم المادة الضيق . فبعد الموت يصبح الإنسان ـ أو بالأصح ـ روح الإنسان كلها سمع ، وبصر ، وشوق إلى الحياة الأزلية .

ولهذا يقال : إن الموت هو نعمةٌ إلٰهيةٌ أنعم بها الله سبحانه وتعالى على بني البشر ، ليصلوا زمناً ما إلى السعادة المطلقة بعد أن تتخلص الروح من قيود القوالب المادية ، وعالم الطبيعة .

ويمثل للموت بالنسبة للمؤمن خلاصاً وانقاذاً له من مجالسة الأشرار ، وبشارة بقرب معاشرة محمد صلى الله عليه وآله ، وآله الأطهار عليهم السلام .

فالموت لا يخيف المؤمن ، ولا يرعبه ، بل يبعث السرور في قلبه ، والذي يخشى الموت ويكرهه إنما يحب الدنيا ، ولا يرغب في فراقها ، وليس عنده إيمان مطلق بالغيب . وهناك أدلة وبراهين عديدة حول تجرد الروح ، وأن الإنسان هو جسد فانٍ ، وروح أزلية ، إلّا أن ذكر هذه الأدلة لعامة الناس لن

يحقق النفع المطلوب . فتغلب الجهل على العقول والنفوس يعرقل في الواقع استيعاب هذه الأدلة وإدراكها . وكل من يشعر باستعداد لإدراك هذه الأدلة وفهمها يستطيع مراجعة الكتب الخاصة بهذه القضايا .

مكان المعرفة ليس في جوف الإنسان :

أين يكمن مكان العلم والمعرفة اللذان يكتسبهما الإنسان خلال حياته الأرضية ؟ فكل إنسان من الشخص الذي استطاع فقط فك رموز الخط ، إلى المهندس والطبيب والبروفسور المختص ، ومن الذي غاص في أعماق البحار ، إلى الذي اخترق الفضاء ، والذي ادّعى اطلاعه على أسرار الكون العرفانية ، الكلّ يدّعي بأن لديه قدراً كبيراً أو قليلاً من العلم ، والإدراك والمعرفة .

فأين يتم خزن هذا القدر الضئيل أو الكبير من العلوم والمعارف ؟

هل تخزن ما بين أصابع اليد ، على سبيل المثال ؟ أم في شعر الإنسان ؟ أم في خلايا دمه ؟ وهل من الممكن أن تخزن العلوم بين ثنايا المخ الإنساني ؟

لا يمكن الادعاء بأن مخ الإنسان المادي هو المكان المناسب لخزن العلوم والمعارف ، إذ هي ليست بمادةٍ ليتم تحليلها في المادة . العلوم ليست بمادةٍ لنملأ منها الكف مثلاً . منطقياً وعقلياً يعتبر ذلك من المستحيلات .

فيا أيها الذين تدّعون العلم والمعرفة : هل لكم بأن تدلّونا على المكان الذي خزنتم فيه علومكم ومعارفكم ؟

العلم اللامتناهي في الروح المادية :

العلم موجودٌ في ذات الإنسان ، وروح الإنسان ليس بمادةٍ . ولذلك فان روح الإنسان هي مركزٌ لكلّ العلوم والمعارف والحواس .

وانطلاقاً من أن حدود روح الإنسان معدومةً كليّاً ، فلا يوجد أيضاً نهاية

للعلوم البشرية ، والتي هي في حالة تقدم مستمر .

إذن : اللامتناهي لا يمكن البحث عنه في المادة المتناهية .

وعلى هذا الأساس ، لو كان مركزُ العلم والمعرفة في المخ البشري المحدود ، لوجب وعند تقدم العمر أو الإبتلاء بمرضٍ ما أن تفنى هذه المعرفة أو تصاب على الأقل بضعفٍ واضحٍ . كما أن إدراك وحواس الإنسان يجب أن تضعف كنتيجة منطقية لقولنا بأن مركز المعرفة هو في مخ الإنسان المادي . في حين أننا نرى أن تقدم العمر بالإنسان يؤدي إلى ازدياد قوة إدراكه وحواسه ، رغم ضعف ونحافة جسمه .

قوة الروح رغم الضعف الجسماني :

تقول الآية الشريفة : ﴿ومن نعمره ننكسه في الخلق﴾[1] وإستناداً إلى الآية الشريفة فضعف الإنسان يظهر في خلقته ، وليس في روحه ، فعالم الروح أسمى من أن يتعرض لأي ضعف أو كسل .

فمن خواص عالم الخلق الضعف والكسل والمرض والشيخوخة والذبول والفناء . أما الروح الإنسانية ، فهي منزهة عن كل تلك الصفات ، وخواص العالم المادي . للإنسان .

وعلى هذا ، نقول : إن المعرفة والإدراك الإنساني في حالة تقدم مستمر .

الحكمة الأزلية تقول : « إعرف نفسك » ومعرفة النفس مفضلة ومقدمة على معرفة العلوم الأخرى .

---

(١) سورة يٰس ، الآية : ٦٨ .

الإنسانُ حاكمٌ على الجسدِ :

مما يؤسف له حقّاً أن الإنسان يسعى وراء كسب أي علم كان سوى علم الذات ، لذلك فهو لا يزال في الواقع يجهل نفسه تماماً ، فهو يعتقد بأن المادة هي أساسُ وجوهرُ كل شيء أما بعد الموت ، فلا يوجد سوى العدم والفناء .

« إعرف نفسك » أيها العبد ، فأنت الذي تحكم جسمك ، وليس هو الذي يحكمك ، وشرف الإنسان وكرامته في روحه ، وليس في جسده ، وما أجمل قول « الإنسان شريف بروح إنسانيته » .

إن كلّ شرف وكلّ فضيلة ، وكلّ عظمة إنما تنسب إلى الروح ، فهي محور الإيمان واليقين ، أما الجسد ، فما هو إلّا سفينة لهذه الروح الأزلية « رحم الله إمرء عرف قدر نفسه » . قال الشاعر :

انجز عملاً يتعلق بذاتك بالغريب ... من الغريب ؟ إنه جسمك الترابي
تخلّ عن الجسم ليُسرّ القلب ... لانه سبب حزنك الأبدي

عجباً لبني البشر ، إذ لا يعرفون همّاً ولا غمّاً إلّا راحة الجسد ، أما الذات فهم في غفلةٍ تامةٍ عنها .

ماذا سيأخذ الإنسان معه بعد الموت ؟ لن يحمل معه زينته وأمواله وجماله ، وكل ما جهد من أجله في حياته الفانية .

وحمله الوحيد سيكون ﴿لباس التقوى﴾ و ﴿لباس التقوى ذلك خير﴾[1] .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ٢٦ .

الإهتمام بالمركب :

المثل الشائع يقول : « انشغل بالمركب ونسي الراكب » أي حالة تخالف العقل والوجدان والمنطق ، فهل من المنطق انتخاب الجسد الفاني ، ونبذ الروح الخالدة ؟ إن الإنسان لفي غفلة تامة عن نفسه ، لقد أعدّ كل شيء في حياته الفانية من أجل راحة جسده ومتعة جسده الفاني ، ونسي أن يعدّ غذاء لروحه وعندما تزاح الستائر جانباً يعلو الصراخ والعويل من كلّ جانب ، واحسرتاه أين كنا ، وماذا فعلنا و . . . الخ .

ويبدأ الإنسان في ذرف دموع الندم بعد فوات الأوان والتساؤل عن الغاية من وجوده ، وكيف سها عن الهدف الأصلي والمعنى الحقيقي للحياة . لم يكن الهدف تلبية مطالب الجسد ، فمتى ما رحل الإنسان عن هذا العالم فلن يأخذ معه سوى لباس التقوى ، وهو الأفضل .

إذن على الإنسان العمل على راحة روحه ، واستقرارها في العالم الآخر ، ولا ينهمك فقط في إشباع حاجاته ورغباته الدنيوية .

الاعداد للسكن الأزلي :

بطبيعة الحال ، لا يجب أن نفهم مما سبق قوله أن على الإنسان أن يرفض وينسى تشكيل حياة له ، بل أن يؤمن بأن لكل من جسده وروحه عليه حقّاً واجب التأدية .

فكل إنسان يسعى خلال حياته إلى إعداد مسكن يأوي إليه بعد قضاء يوم عمل شاقٍ . وهذا حق مشروع ، وواجب على كل إنسان ، وقد يتساءل الإنسان : كم سيقضي من سنوات في هذا المسكن ؟ بطبيعة الحال ، فان الإنسان منذ مولده وحتى مماته يعيش في مسكن ما .

وهذه الفترة قد تطول أو تقصر حسب المقدر له .

وكذلك فان الروح تحتاج إلى سكن خاص بها ، وهذا السكن سيكون أبدياً لترتاح فيه إلى جوار الله سبحانه وتعالى ﴿**في مقعد صدق عند مليك مقتدر**﴾[1] .

ليلاحظ الإنسان كم يبذل من جهدٍ وطاقةٍ من أجل حياة فانية لا يعلم تطول أم تقصر ، إلاّ أنه عندما تذكر الآخرة ، فكأنه يستمع إلى قصةٍ .

مغالطة الحقائق :

إن الإنسان لا يزال يغالط الحقيقة ، فعندما نقول له : إن الروح بحاجةٍ إلى سكنٍ كحاجة الجسد إلى مسكن ، يعود ويتساءل : هل على الإنسان أن يترك نعم الدنيا ومتعها ؟ أم إن هذه الدنيا تخصّ الكفار فقط ؟

نكرر القول بأن الإنسان يجب أن يتجنب الحرص والبخل لكي لا يقع في شراك الغش والخيانة والصكوك المزيفة ، ولأي هدف ؟ لشراء قصرٍ منيفٍ أو عمارةٍ من عدة طوابق ، ليكون أفضل وأعلى مستوىً من الآخرين .

ولا يوجد هناك من يقول للإنسان لا تتمتع بالنعم الإلٰهية .

عشر عباءات بدلاً من واحدةٍ :

جاء في الروايات أن أحد مريدي المرحوم السيد عبد الحسين آية اللّٰهي لاري . قد أهداه عباءةً ثمينةً . وعندما تبيّن للمرحوم أنها ثمنيةً سأل المريد عن قيمتها فقال : إن ثمنها يعادل قيمة عشر عباءات . فقال له السيد : خذ هذه العباءة وبعها واشتري بدلاً منها عشر عباءات ، واتني بها جميعاً .

ففعل المريد ما أمره السيد ، وحينئذٍ أخذ المرحوم عباءةً واحدةً له ،

---

(١) سورة القمر ، الآية : ٥٥ .

ووزّع بقية العباءات بين طلبته .

البركة في اثني عشر درهماً :

روي عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام أنه اشترى لرسول الله صلى الله عليه وآله ثوباً بقيمة اثني عشرة درهماً ، فلمّا قدمه للرسول صلى الله عليه وآله قال له : هل من الممكن فسخ هذه المعاملة ؟ عاد أمير المؤمنين وفسخ معاملة شراء الثوب . ثم ذهب الرسول صلى الله عليه وآله وعليّ عليه السلام إلى السوق معاً ، واشترى صلى الله عليه وآله ثوباً بأربعة دراهم فقط ، وارتداه ، وفي الطريق رأى الرسول رجلاً عرياناً ، فخلع ثوبه ، وقدمه لذلك الشخص ثم عاد إلى السوق ، واشترى ثوباً آخر بنفس القيمة ، وعند عودتهما التقى محمد صلى الله عليه وآله بجاريةٍ يبدو عليها القلق ، فسألها صلى الله عليه وآله : ما بك ؟ فقالت : لقد أضعت أربعة دراهم أعطانيها مولاي لأشتري له شيئاً من السوق ، وأنا الآن لا أجرؤ على العودة إلى البيت .

فأعطاها الرسول أربعة دراهم ، إلّا أن الجارية ظلت واقفة في مكانها . فسألها خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله : لماذا لا تعودين إلى بيتك إذن ؟

فأجابت : لقد تأخرت ، وأخاف أن يضربني سيدي .

فصحبها الرسول صلى الله عليه وآله إلى باب بيتها . وعندما سمع مولاها صوت الرسول صلى الله عليه وآله هرع ليرحّب به . فطلب منه محمد صلى الله عليه وآله أن يشفق بجاريته .

فأجابه على الفور : يا رسول الله إنني أقدم هذه الجارية هدية مني إليك بمناسبة قدومك المبارك .

فأجاب عليه أفضل الصلاة والسلام : وإنني أعتقها حرة لوجه الله تعالى .

وبعد ذلك قال الرسول صلى الله عليه وآله : ما أعظم البركة التي أودعها

الله في هذه الاثنتي عشر درهماً . فقد كست عرياناً ، وهدأت من روع خائفة مسكينة ، وحررت جارية .

دار الآخرة لرجل من جبل عامل :

كان هناك رجلٌ من أهالي جبل عامل ـ وهم من محبي أهل البيت عليهم السلام منذ صدر الإسلام ، وذلك ببركة الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري ـ رضي الله عنه ـ .

وكان كل ما يتشرف بحج بيت الله الحرام ، يذهب إلى زيارة الإمام الصادق عليه السلام حيث يقضي عند الإمام أياماً معدودةً ، ثم يعود إلى موطنه في جبل عامل .

وكان هذا الرجل غنيّاً ، ففكر يوماً أن يشتري بيتاً له بدلاً من مضايقة الإمام الصادق عليه السلام . فجاء إلى الإمام عليه السلام وأعطاه اثني عشرة ألف ديناراً ، وطلب منه أن يشتري له بيتاً لكي لا يضايقه بعد ذلك .

وكان الإمام الصادق عليه السلام يعلم أن ذلك الرجل لن يعيش أكثر من هذه السنة ، فأخذ النقود منه ، ووزعها على السادة الفقراء .

وعندما عاد الرجل لأداء فريضة الحج حضر عند الإمام عليه السلام ، وسأله : سيدي هل تم شراء البيت ؟

فقال له الإمام عليه السلام : نعم . وهذا هو سنده ، فخذه .

فأخذ الرجل السند من الإمام الصادق عليه السلام ، ونظر فيه ، فرأى مكتوباً فيه : « البائع جعفر بن محمد إلى الشخص الفلاني ، لبيت في جنة الخلد إلى جوار محمد وآله » عليهم السلام « البيت الذي لن تطرد منه في الجنة . أما الدنيا فستطرد منها مهما فعلت » .

وفي هذا السند كتب الإمام الصادق عليه السلام الحدود الأربعة للبيت

حيث يصل حده الأول بيت الرسول صلى الله عليه وآله ، والحدّ الثاني بيت الإمام علي عليه السلام والحد الثالث بيت الإمام الحسن عليه السلام ، والحد الرابع بيت الإمام الحسين عليه السلام . وأن البيع قد تمّ بمبلغ اثني عشرة ألف دينار تم استلامها وتوزيعها على ذرية الزهراء عليها السلام .

وعندما انتهى الرجل من قراءة السند قبّل يد الإمام الصادق عليه السلام وعبّر له عن إمتنانه بإجراء هذه المعاملة .

لقد كان هذا الرجل يؤمن إيماناً لا يشوبه الشك بالإمام عليه السلام ، ولهذا فقد شعر بسرورٍ صادقٍ ، لأنه اختار له الدار الباقية على الدار الفانية .

إذن ينبغي أن يكون لدى كل مؤمن يقين مطلق في أن الموت لا يعني الفناء والعدم ، فاللحم والجسم والعظام ليست هي بذات الإنسان الحقيقية .

قال الشاعر :

من أطراف العرش يأتيك النداء قائلاً ماذا دهاك في هذا الفخ

نعود إلى روايتنا ، حيث عاد الرجل العاملي إلى بلاده ، ولم يمكث هناك إلّا فترةً قصيرةً مرض فيها ومات . وقبل وفاته أوصى الرجل أن توضع رسالة الإمام الصادق عليه السلام في كنفه لأنه سند بيته بتلك الدار الآخرة .

وبعد دفنه بيومٍ واحدٍ ، ذهب آله إلى قبره ، فوجدوا ذلك السند موضوعاً على القبر ، وقد كتب عليه بخط أخضر ، وبقلم القدرة الإلٰهية « قد وفّى جعفر بما وعد » .

هل لنا من سبيلٍ إلى بساط العظماء ؟

لا يعلم الإنسان في الواقع ، هل لديه استقرار أم لا ؟ هل لديه أنيس وصديق من أهل الإيمان أم لا ؟ هل سنجد الراحة والهدوء تحت شجرة طوبى ! أو عند حوض الكوثر ! هل سيجد طريقاً إلى جوار ملك عالم الوجود ـ الإمام

عليّ عليه السلام ؟ أم لا ؟ وهل سيستطيع أن يجد مكاناً لـه على بساطـه ؟ « فيا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً » .

هـل سنحشر مـع الشهداء ، ولـدينا هـذا المـاضي الـزاخـر ؟ وكـل هـذا الضعف في الدين والإيمان إلاّ اللّهم إذا نظر الله إلينا . قال الشاعر :

عظمة العظماء لا تنقص بالإهتمام بالضعفاء

فسليمان العظيم كان يهتم حتى بالنمل

نظرة عطف وشفقة يشملنا برحمته الواسعة .

وإلاّ عن طـريق المحبة والأمـل بكرم الله ـ عـزّ وجلّ ـ فـالمحبـة هي التي تجذبنا نحو المحبوب . فلا تترك أيها المؤمن رباط المحبـة لآل محمد صلى الله عليه وآله ، ومحبة السادة من ذرية النبي صلى الله عليه وآلـه إذ عن طريقهم قـد تصل إلى جواره عليه أفضل الصلاة والسلام .

الفصل الثاني عشر

التعالي يحرم الإنسان من الدار الباقية :

﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾[1] .

لا ينبغي أن نقارن بين نعم الدار الآخرة الأزلية ، وبين نعم الدار الدنيا الفانية . فأصحاب الهمم يعلمون جيداً أن هذه الدنيا الفانية زائلة . ومن ثَمَّ ، فهم لا يفكرون في التعالي على الآخرين بهدف أن تكون حياتهم الأفضل والأحسن والأرقى .

وكل من يشعر بالإستعلاء والتعالى على الآخرين ، فان ذلك دليل على جهله وضعف إيمانه بالآخرة . وانقياده لمغريات الدنيا .

الجهلة من الناس يعتقدون بأن الآية الشريفة الآنفة الذكر ، ومثيلاتها إنما

---

(١) سورة القصص ، الآية : ٨٣ .

قد نزلت في وصف الكافرين . في حين جاء في تفسير هذه الآية أن أمير المؤمنين وسيد الموحدين علي عليه السلام عندما كان يقرأ القرآن في سوق الكوفة ، يتجه بوجهه نحو الكسبة والتجار عندما يصل إلى هذه الآية ، لينبههم بان العلوّ والتعالي على الآخرين هو أحد السبل التي توقعهم في شراك الإحتكار والتزوير . قال الإمام عليّ عليه السلام : « إن الرجل ليعجبه شراك نعله ليكون أجود من شراك صاحبه ، فيكون من أهل هذه الآية » .

كيف يمكن للعالم العلوي أن يفسح السبيل أمام الجاهل ؟

يجب إذن هداية الجاهل ليدرك بأن الحياة الدنيا ما هي إلاّ أيام قلائل لا تستحق كل هذا الإهتمام والسعي إلى التعالي على الآخرين . لا ينبغي أن يركز العبد كل همه وفكره في هذه الدنيا ، فليست هي إلاّ معبر لقضاء حاجة الإنسان ، ومن ثَمَّ الإنتقال إلى العالم الأزلي .

شبر واحد في الجنة أفضل من ملك الدنيا :

مرّ عالمٌ بمقبرةٍ ، وكان هناك من يقوم بتنظيف مرافقها الصحية . فقال العالم لمن حوله : « هذه عاقبة نعم الدنيا ، وهذه القبور هي آخر من يأكل هذه النعم » فعمر الإنسان قصيرٌ ، ما هو إلا سويعات قصيرة وتمضي . وعندما يعلم الإنسان أن مصيره في هذه الدنيا لن يتعدّى إهالة حفنات كثيرة من التراب عليه ، سيتساءل : ما جمال الدنيا إذن ؟ إذا كانت نهايتها بهذا الشكل ، مجرد حفنات من التراب تلقى على جثمان الميت ؟

فالإنسان العاقل لا يفكر لحظةً واحدةً في نعم ومغريات هذه الدنيا الفانية ، فما يريده هو الأفضل ، والأفضل يتمثل في أن ﴿ **والآخرة خير وأبقى** ﴾ .

وإذا كان لدى الإنسان حب التعالي والغرور ، فان ذلك يعني أنه لم يفهم بعد المعنى الحقيقي لـ ﴿**والآخرة خير وأبقى**﴾ . فالدنيا فانية وشبر في الجنة

أفضل من كل الدنيا .

عاقبة ملذات الدنيا :

في كتاب إرشاد القلوب ، ينقل الديلمي عن لسان ابن مسعود ، قوله :

في يوم من الأيام كنا جمعاً من الصحابة ، نتجول مع رسول الله صلى الله عليه وآله . فرأينا خرابةً فيها مزبلةٌ ، وملابسُ بالية ، ملقاة على الأرض . فوقف رسول الله ، والتفت إلينا قائلاً : « أيها الأصحاب هذه الملابس البالية هي عاقبة ثياب أهل الدنيا الجميلة . وهذه العظام هي ما بقي من الإنسان ، أما هذه المزبلة فهي عاقبة طعام الدنيا » .

فقال ابن مسعود : ففاضت الدموع من عيوننا لهذه العبرة البليغة .

النظر إلى المستقبل دليل العقل والحكمة :

إن لم يفكر الإنسان في آخرته ، فلا يوجد إذن فرق بينه وبين الحيوان . فالنعاج التي ترعى الحشائش تجهل بأن القصاب ينتظرها ، وفي يده السكين . فهي لا تعرف أي معنى للمستقبل . وما يعنيها فقط هو حاضرها .

ويمكن القول بأن الإنسان الذي لا يفكر سوى بحاضره ، ولا يفكر بمستقبله ، لا يختلف عن هذه النعاج العجماء .

فهل تستحق الحياة الدنيا بكل مصاعبها وتعقيداتها من الإنسان أن يبذل روحه وجهده من أجل أن يكون أفضل من الآخرين ، ليعيش حياةً ناعمةً ومترفةً . إن جمع الأموال ، وتكديسها لتحقيق هذا الهدف ، حياة أكثر ترفاً ونعومةً وجمالاً من حياة الآخرين ، لهو دليلٌ على جهل القلب وضعف إيمانه .

قد يعترف المسلمُ ظاهريّاً بأحكام الإسلام ، ومبادئه السامية إلّا أنه يفتقد الإيمان الحقيقي النابع من أعماق قلبه . نعم إن قلب مثل هذا المسلم فاقد لنور الإيمان .

الإهتمام بالدنيا دليل الضعف وضآلة الإنسان :

متى ما تعلق قلب الإنسان بـالآخرة ، فـانه يهفـو إلى وصال الصـالحين . وكما أن أهل الدنيا يطلبون العلوّ فيهـا ، فليكن طلب المؤمن الوصـول إلى جوار الإمام الحسين عليه السلام والقرب من أهل البيت عليهم السلام .

نعم . إنه لأمر عظيم وكبير أن يكـون الإنسان على قـرب من عظيم عـالم الوجود وسلطان العالم الأعلى أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ، ويرتفع إلى هذه المنزلة السامية .

وكيف يتـوقع من يغلب عليـه حب الدنيـا أن يصل إلى جـوار أهـل البيت عليهم السلام . فالإنسـان الذي ركّـز كل إهتمـامه وأهـدافه على ملذات الـدنيا ومغـرياتهـا هو إنسـانٌ ضيقُ الأفق ضعيفُ الإرادة والإيمان . ورابـطتـه بـالعـالم العلوي هي ضعيفةٌ جدّاً . أما المؤمن الذي يفكر ليلاً ونهـاراً بآخـرته ، ويخشى يوماً يسودّ فيه وجهـه أمام المـلأ الأعلى والأولياء ، ويعجـز فيه عن الـوصول إلى قرب النبي صلى الله عليه وآله يتساءل هذا المؤمن دائماً : يـا رب هل هنـاك من أمل لي في أن أكون إلى جوار الإمام الحسين وأصحـابه الـذين ضحوا بـأنفسهم وأنـا لا أكف عن ذكـرهم . هـل سـأكـون بقـربهم بعـد المـوت ، وأنـا الحقيـر الذليل ؟ .

حديث النبي داوود مع متّى والد يونس عليهم السلام :

طلب النبي داوود عليه السلام من الله سبحانه وتعالى أن يعرفـه على رفيقٍ له بعد الموت . وجاء نداء منه تعالى : أن انظر إلى باب المدينـة غداً صبـاحاً ، وأوّل داخل إليها سيكون جليسك في الجنة .

وقف داوود ينتظر ، حتى رأى رجلاً يحمل حطباً على ظهره ، وهـو ينادي من يخفف عني حملي فجاء آخر واشتـرى الحطب منـه مقابـل دراهم معدودة .

فاقترب داوود عليه السلام من الحطاب وسلم عليه وسأله من أنت ؟ وماذا كنت تفعل ؟ فأجاب الرجل بكلّ إعتزازٍ : أنا متّى أبو يونس ، وكنت أقوم بتقطيع الأشجار اليابسة في أعالي الجبال ، وقد أتيت بها إلى هنا ، حيث بعث الله لي من اشتراها مني . وطلب داوود من متّى أن يستضيفه ، فوافق الرجل بطيبة خاطر .

وكان سليمان يرافق والده داوود ، فاستضافهم الرجل في بيته . وفرش متّى سفرة الطعام ، حيث صفّ عليها أطباقاً من طعامٍ بسيطٍ . وقبل أن يبدأوا بتناول الطعام دعا متّى عليه السلام بكلّ خشوعٍ وخضوعٍ قائلاً : من يستطيع يا إلٰهي أن يشكرك على هذه النعم كلها ؟ فقد منحتني القوة لأقطع الأخشاب من أعالي الجبال ، وأحملها على ظهري ، وبعثت لي من يشتريها ومكنتني من شراء الحنطة التي خلقتها ، وأعطيتني القوة والهمة لأصنع منها خبزاً فالحمد لله والشكر .

وهنا التفت داوود عليه السلام إلى ولده سليمان عليه السلام وقال له : حقّاً لهو جدير بأن يكون جليس الأنبياء .

﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً﴾ .

فالويل كل الويل للمسلم الذي يتطلع إلى العلوّ والجاه والحياة المترفة .

عمر بن سعد والإسلام الظاهري[1] :

بمناسبة هذه الأيام سأتحدث لكم الآن عن تعيسٍ من هؤلاء التعساء .

كان عمر بن سعد بن أبي وقاص ، مسلماً ابن مسلم . فوالده ابن أبي وقاص من المسلمين الذين اشتهروا بخدمة الإسلام والقتال من أجله حيث

---

(١) القيت هذه المحاضرة بمناسبة شهر محرم الحرام .

اشترك في الحروب الإسلامية ، وأبلي فيها بلاءً حسناً .

وكان سعد غالباً ما يزور المسجد ويصلي فيه كثيراً ، وقد حظي باحترامٍ بالغٍ من قبل كافة المسلمين .

أما ولده عمر ، فظاهريّاً كان يبدو مسلماً واقعيّاً ، إلّا أن قلبه ـ وكما أثبتت الأيام ـ افتقد الإيمان الحقيقي . نعم كان يصلي ويصوم ويشترك في قتال الكفار . ولكن أين كان قلبه ؟ وبماذا كان يفكر ؟ وأي عقيدة كان يحمل ؟

اتضحت حقيقة عمر بن سعد في واقعة كربلاء عندما كشف عن تعلقه بالدنيا والمال والمنصب .

الإستعداد لحرب الديلم :

قبل أن يصل الإمام الحسين عليه السلام كربلاء ، أفادت الأخبار بأن الديلم قد طغوا وأنهم قد اخضعوا بعض المناطق لنفوذهم وسيطرتهم .

وكان عمر بن سعد آنذاك يحظى باحترام المسلمين لمكانة أبيه الكبيرة لديهم ، وله من العمر ثمان وعشرون عاماً .

وقد أرسل ابن زياد في طلبه واقترح عليه الذهاب لحرب الديلم ، ووعده بولاية (الرّي) وتوابعها ، بعد أن يحقق النصر على الديلم ، وكتب ابن زياد لعمر بن سعد حكم الولاية على (الرّي) كما عيّن له مكاناً خارج الكوفة كنقطة لانطلاق قواته لحرب الديلم .

المهمة الصعبة حرب الإمام الحسين عليه السلام :

وعندما وصلت رسالة الحرّ ـ في الوقت الذي حلّ فيه الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء ، أرسل ابن زياد كتاباً إلى عمر بن سعد يخبره فيها بأن هناك مهمة عاجلة ، عليه بتنفيذها أولاً ، قبل محاربة الديلم . وكان يعني القضاء

على الحسين وأتباعه .

فاعتذر ابن سعد عن القيام بهذه المهمة ، وقال لابن زياد إنه يفضل قتال الديلم . فردّ عليه ابن زياد : إنك يا عمر لا تريد أن تخدم حكومة يزيد ومن ثَمَّ ، فعليك بإرجاع توليتك ولاية الرّي .

وهنا تردد ابن سعد ، وطلب منحه فرصةً ليلةً واحدةً ليعيد التفكير في الأمر . وهنا وجّه أصحابه النصح إليه أن لا يفعل هذا الأمر ، إذ أنه سيحمل عاره إلى يوم القيامة .

وجاءه أحد أصحاب والده، واسمه كامل ، وقال له : إن صداقتي الحميمة لأبيك تحضني على طلب الخير لك . فلو أعطيتُ ملك الدنيا ، ومالها على أن أقتل مسلماً ما قتلته ، فكيف ، وإن ابن زياد يأمرك بقتل ابن رسول الله صلى الله عليه وآله مقابل ولايتك على الرّي ؟ .

حديث الراهب مع كامل :

وواصل كامل حديثه مع عمر بن سعد ، وقال : جمعتني وأبيك رحلة إلى الشام ، وفي وسط الصحراء نفذ شرابنا وطعامنا ، إلّا أننا رأينا عن بعد ديراً ، ففي الطريق إلى الشام هناك الكثير من الأديرة ، والصوامع التي يعيش فيها الزهاد ، والنساك المسيحيين بهدف التعبد والإنقطاع عن الدنيا ، وأملاً في رؤية أحد الأنبياء أو الأولياء الصالحين .

فاتجهنا نحو الدير طلباً لبعض الماء والطعام . وبعد أن طرقنا باب الدير ، تساءل من أعلى الدير راهب أن : من أنت ؟

فقلت له : أنا أحد المسلمين . فسأل الراهب ثانيةً : هل أنت من أمّةٍ يقتل بعضها بعضاً من أجل الدنيا ؟

« الويل من حب الدنيا وحب الرئاسة » إذا كنت مسلماً حقّاً ، فان الله

تعالى قد قال : ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً﴾ وقد قرأت بأن هذه الأمة تقتل أبناء نبيّها ، وتأسر أطفاله وتسلب أموالهم .

وأضاف الراهب : وقرأت أيضاً أن كل من يشارك في قتل ذلك السيد « ابن رسول الله » سرعان ما سيقتل ، وأن نصف عذاب جهنم سيخصص لقتلة هذا السيد .

إتمام الحجة على ابن سعد :

وواصل كامل حديثه مع ابن سعد ، وقال : رجعت إلى حيث كان أبوك ينتظرني ، وقصصت عليه ما جرى ، فأخذه العجب ، وقال : في إحدى رحلاتي إلى الشام ، مررت بهذا الطريق واستسقيت من نفس هذا الراهب ، وقد سبق له أن تحدث لي بكلّ ذلك ، إلّا أنه أضاف آنذاك : أنت أبو قاتل الحسين ، فلا تقترب مني .

(يجب الإشارة هنا إلى أن بعض الرهبان لديهم القدرة على التنبؤ بأحداث المستقبل) .

ورغم أن كامل قد قصّ على ابن سعد تلك الأحداث والتنبؤات إلّا أن عمر بقي متردداً ، وذلك لضعف إيمانه وحبه للدنيا والرئاسة .

النتيجة المعكوسة :

ويقال : إن عمر بن سعد قد بقي في تلك الليلة سهراناً يفكر وينشد الشعر ، ويقول :

أأترك ملك الرّي والرّي منيتي أم أرجع مأثوماً بقتل حسين

وأخيراً وصل ابن سعد إلى نتيجةٍ ، مفادها ، بأنه سيقوم بمهمة قتل الإمام الحسين عليه السلام ، ليحصل على ولاية الرّيّ ، ومن ثم يتوب إلى الله

تعالى ، فيحصل على الاثنين ، ملك الدنيا وجنة الآخرة .

وهذا ما كان مستحيلاً ، فالدنيا والآخرة على طرفي نقيض .

﴿خسر الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين﴾ .

فعاشق الدنيا لن يصل إلى مرامه ، وهدفه ، مهما سعى ، أما عاشق الآخرة ، وعاشق لقاء الله وأولياءه الصالحين ، فانه سيصل إلى مرامه حتماً .

محبو الدنيا وعشاقها هم المحرومون الحقيقيون :

وفي اليوم التالي هرع ابن سعد إلى ابن زياد ، ليعلمه بقراره . وقال له : سأذهب إلى كربلاء . وذهب وفعل ما فعل .

وبعد أن أنهى مهمته ، ذهب ثانية إلى ابن زياد ، الذي طلب منه إعادة أمر توليته على الرّيّ ، فادعى ابن سعد أنه قد أضاعه .

فقال له ابن زياد : لقد اتضح لي عدم وفائك ليزيد ، فالأشعار التي أنشدتها قبل ذهابك إلى كربلاء ، تدل على وجود الشكّ في قلبك ومن ثَمَّ ، فأنت ليس أهلاً للولاية .

نعم . لقد حلّت اللعنة عليه . لعنة الإمام الحسين عليه السلام عندما قال له في يوم عاشوراء : « لا ترض عنهم الولاة » . وعندما لعنه ثانيةً بعد استشهاد ولده عليّ الأكبر « سيرسل الله لك من يقتلك في فراشك » .

افتضاح أمر عمر بن سعد :

عند ذلك شعر عمر بن سعد بألمٍ وندمٍ شديدين ، وقال : لا يوجد هناك من هو أسوء مني عملاً ، فلم أحقق مرادي ، ولوثت يديّ بدم الحسين » .

بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام عاش ابن سعد لفترةٍ ما في الكوفة ، أصبح فيها « قعيد البيت » لا يجرؤ على الخروج منه إذ كان أطفال

الكوفة يحوطونه ، وهم يرددون : هذا هو قاتل الحسين .

وإذا ذهب إلى المسجد يسارع الجميع إلى الإبتعاد عنه أو مغادرة المسجد . حتى قيل : إن نساء الكوفة ، قد خرجن في مظاهرة استنكرن فيها تعيين ابن زياد له كنائب لوالي الكوفة ، بعد أن قرر التوجه إلى البصرة .

وفي زمن المختار بن يوسف الثقفي ، أرسل له الثقفي مَن فصل رأسه عن جسده ، وهو في فراشه . نعم هذه هي نهاية كل عاشق للدنيا ، وكل من يضحي بالمبادىء والمثل السامية في سبيل الجاه والمال والرئاسة ، وعلى فرض أنهم حققوا هذا الهدف فحتى متى يمكنهم الإستمرار ؟ .

المسلمون المطرودون يوم القيامة :

طوبى لمن يؤمن بالآخرة ، فهو يعيش بين الناس إلّا أن قلبه ووجدانه متعلق بالآخرة ، وهذا المؤمن يهفو قلبه إلى اليوم الذي سيجمعه بالإمام عليّ عليه السلام عند حوض الكوثر .

ويقال : إن الكثير من المسلمين في يوم القيامة سيسعون إلى الإقتراب من حوض الكوثر ، إلّا أن الملائكة سيمنعونهم من ذلك ، فيقول رسول الله صلى الله عليه وآله : يا إلٰهي هؤلاء من أمتي فيجيبه النداء الإلٰهي : أنت لا تعلم ماذا فعلوا بعدك .

فقل أيها العبد : لا سمح الله أن أكون من المسلمين المطرودين .

فانسَ الدنيا ، وجدّ في حبّ محمد وآله صلى الله عليه وآله ، وهو السميع المجيب .

وردّد يا ربّ ضاعف من أحزاني على الحسين عليه السلام وزد من حبه في قلبي ولا تجعل لحب آخر من طريق إلى فؤادي ، إبعد عني كل شيء ، ما عدا حب الحسين عليه السلام .

الفصل الثالث عشر

آيات الأنفس ، وآيات الآفاق :

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربّك أنه على كلّ شيءٍ شهيدٌ ألا إنهم في مرية من لقاء ربّهم ألاَ إنه بكلّ شيءٍ محيطٌ﴾ .

في هذه الآية المباركة ، يضع الله تعالى العالم كله في جانبٍ ، وخلق النفس الإنسانية في الجانب المقابل له . فالآفاق والأنفس يمكن وصفهما بباب وجدار عالم الوجود ، فهما شاهدان على التوحيد ، فكل الأدلة والبراهين تشهد على العلم والقدرة اللامتناهية ، والحكمة البالغة من خلق الإنسان .

فالنفس الإنسانية تشهد على أن الله قادر وسميع وبصير مطلق .

وكل صفة من هذه الصفات الكمالية الإلٰهية ، نجد لها نموذج مصغر في النفس الإنسانية . ومن خلالها ندرك مدى كمال الباري ـ عزّ وجلّ ـ المطلق .

إدراك إحاطة الله من إحاطة النفس :

لو أمعن الإنسان النظر في نفسه ، لوجدها تحيط إحاطة كاملة بجميع أعضاء البدن من المخ في الرأس وحتى كعب القدمين .

ورغم أن النفس الإنسانية ليس لها مكان محدد في جسم الإنسان لأنها تمتاز بالتجرد إلّا أنها على إحاطةٍ كاملةٍ بكلّ أعضاء البدن ، وليس هناك أي عضو في جسم الإنسان لا يرتبط بالروح ، إذ هي قيِّمة على البدن المادي ، وتتولى عملية المحافظة عليه .

ومن إدراك كل ذلك يفهم الإنسان أن البدن هو عالم وجوده ، وأن الوجود بكلّ منظوماته يدار من قبل عالم قادر محيط بكلّ خفاياه « مع كلّ شيء لا بمقارنة » . فلا يوجد هناك من شيء في عالم الوجود العظيم إلا وكان الله تعالى قيوماً عليه .

يا من منحت الحياة لكلّ شيء ومنحت التراب الضعيف القدرة
الكون كله تحت أمرك ونحن القائمون بك وأنت بذاتك قائم

ومن خلال إدراك الإنسان لإحاطة النفس بكلّ ما يحيط بها ، يدرك معنى الإحاطة الكلية الإلٰهية بكلّ الوجود والعوالم ، فعلى سبيل المثال : عندما تبرز حكة في قدم الإنسان ، فانه سوف يشعر بها على الفور ، حيث أن مدير البدن هو الروح الإنسانية ، وكذلك الأمر فيما مدبر ، ومدير هذا الوجود الذي يدير جزئياته وكلياته بقدرةٍ مطلقةٍ .

قدرة الروح دليلٌ على قدرة الحق :

لا يستطيع الإنسان أن يصدق بأن جسمه ثقيلٌ جدّاً ، إذ لا يتضح ذلك إلّا متى ما مات الإنسان ، حيث لا يستطيع شخصٌ واحد أن يحمل جثمان الميت ، بل يتطلب الأمر إلى عدة أشخاص . فكيف إذن يتحرك الإنسان بكلّ سهولةٍ

خلاله حياته ؟ فعندما تقتضي إرادة الإنسان التحرك إلى هذه الجهة أو تلك يلبي البدن فوراً هذه الرغبة أو الإرادة .

إذن : قدرة النفس والأرواح الإنسانية تشهد على قدرة الله سبحانه وتعالى . فعلم وسمع وبصر الإنسان هي دليلٌ ساطعٌ على علمٍ وبصيرةٍ وحكمة الخالق المطلقة . كما أن خلود الروح ، وعدم فنائها بعد مفارقتها لجسد الإنسان يثبت ويدل على أزلية الله ـ عزّ وجلّ ـ المطلقة .

عالم كبير في النفس الإنسانية :

لو دقق الإنسان النظر ، وأمعن في آيات النفس الإنسانية لأدرك بأن أعظم آيات الله تعالى هي هذه النفس الإنسانية ، فان ما خلقه الله في الآفاق بشكلٍ متفرقٍ قد جمعه في النفس الإنسانية .

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحدٍ

* * *

« أتزعم أنك جرمٌ صغيرٌ وفيك انطوى العالم الأكبر »

هل يعتقد الإنسان بأنه لا شيء سوى مترين من الطول ، وعدة كيلوات من الوزن ؟ كلا . فان الإنسان جامعٌ للعالم الكبير المحيط به .

وسوف أجري هنا مقارنة بسيطة بين عالم الملكوت والنفس الإنسانية . وأقدم نماذج بسيطة لنرى مدى تطابقها مع الإنسان .

الشرايين في جسم الإنسان والجداول في الأرض :

أجرى الله تعالى على سطح الأرض عدداً كبيراً من الأنهار والجداول المليئة بالمياه ، وكذلك في جسم الإنسان ، هناك جداول مليئة بالدماء ، الدائمة الجريان ، ويطلق عليها إسم الأوردة والشرايين . وهناك في جسم

الإنسان ثلاثمائة وستون شريانـاً ، ووريداً ، تتصل كلها بقلب الإنسان ، وفي عمليةٍ مستمرةٍ ، يخرج الدم الصافي من قلب الإنسان ، ويدخل إليه الدم الفاسد . ومتى ما توقفت هذه الجداول الإنسانية عن العمل ، فان ذلك يعني موت الإنسان أو إصابته بالشلل ، أي إنسداد الشرايين والأوردة .

الأشجار والجبال كالشعر والعظام في جسم الإنسان :

الشعر الذي يغطي بدن الإنسان هو كالأشجار التي تملأ الطبيعة أما عظام البدن ، فهي كجبال الأرض ، فان خلت الأرض من جبالها ، فان ذلك يعني زوالها . وكذلك العظام التي تحافظ على بدن الإنسان ، وبنفس الأسلوب ﴿والجبال أوتاداً﴾ . فالجسم من غير عظام كالأرض بدون جبال . فالعظام هي الأوتاد الإنسانية التي تحافظ على بنية الإنسان واستقامتها .

سعادة الروح ونار الحرص :

يمثل الإنسان نموذجاً مصغراً لما هو عليه عالم الوجود بأكمله . واليوم ، وبعد إكتشاف الذرة ، أصبح من المسلم به أن خليةً أو ذرّةً من جسم الإنسان تشبه في نظامها مجموعة شمسية كاملة .

وحتى الجنة والنار نجد لهما نموذجاً مصغراً في النفس الإنسانية . فالإنسان في الجنة لا يشعر بغير السعادة الأبدية ، لا هموم ولا مشاكل بل سعادة وفرح دائم ومتصل . وكذلك الإنسان الذي تشعر روحه بسعادةٍ وغبطةٍ فائقةٍ متى ما ذكر أمامها إسم حبيبها محمد صلى الله عليه وآله ، أو متى ما امتدح محبوبها الإمام عليّ عليه السلام .

وهذه الغبطة والسعادة التي تشعر بها روح الإنسان على الأرض شبيه لما تشعر به وهي في الجنة .

وكذلك نار الحرص وشهوة البخل التي تسيطر على الإنسان في حياته

الدنيوية ، يمكن مقارنتها بنار جهنم التي كلما ألقي فيها المزيد من المذنبين تساءلت : هل من مزيد ﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾[1] .

ومثل جهنم كمثل بعض السادة أصحاب الملايين الذين لا يشبعون ، ولا يملّون من تكديس الأموال ، وكلما تضاعفت ملايينهم طالبوا بالمزيد .

أما الملائكة ، فلهم نموذج في النفس الإنسانية ، ويتجسد في عقل الإنسان . وتمثل الأوهام الباطنة والشهوات الزائفة لدى الإنسان نموذجاً مصغراً للشيطان .

نماذج من الطبيعة الحيوانية لدى الإنسان :

والطبيعة الحيوانية بكلّ صفاتها وخواصها تتمثل أحياناً في بني البشر . فالإنسان أخذ عن الخنزير قوة الشهوة وعبودية المعدة ، ومن المواشي كالأغنام والدجاج ، أخذ صفة البلاهة والغباء ، فالبعض نجدهم كالخراف لا يتعظون بالعبر ، وهناك عددٌ كبيرٌ من الناس يتصفون بهذه الصفة .

قال الشاعر :

ذئب المنية يخطف من القطيع واحداً واحداً
عجباً لهذا القطيع كيف يرعى آمناً

الطاووس في التظاهر ، والقرد في التقليد :

يتصف الطاووس بالتباهي والتظاهر ، فهو لا يمل من التباهي برياشه الجميلة الملونة ، والتغني بجماله . وهذه الصفة هي الغرور والتباهي تتجلى

---

(١) سورة ق ، الآية : ٣٠ .

لدى الكثير من النساء ، مع فارق ، هو أن الطاووس مغناج بجماله الذي حباه به الله تعالى ، أما بعض النسوة فجمالهن مصطنع ومزيف .

والقرد هو حيوانٌ يبرع في تقليد الإنسان ومحاكاة أفعاله ، ويمكن القول أن القرد قادرٌ على محاكاة كل ما يفعله الإنسان والحيوان على الفور وبدقةٍ مذهلةٍ . والدبّ أيضاً يتصف بهذه الموهبة ولديه مثل هذا الإستعداد .

وكذلك الأمر بالنسبة لبعض الناس الذين يحبون محاكاة الآخرين في لباسهم وأفعالهم وتصرفاتهم . فعلى سبيل المثال : لدى بعض النسوة ولع غريب بتقليد ما تلبسه ـ مثلاً ـ فنانة مغنية يعجبن بها . وهنّ أدق من القرد في عملية المحاكاة هذه . إذ أنه لا يستطيع تغيير شكله ومظهره . فعلى سبيل المثال : هناك بعض النسوة اللاتي يطلقن أظافرهن كمخالب الحيوانات المفترسة .

الإنسانِ أرفع من الملك أو أحقر من الحيوان :

في كتاب « حياة الحيوان » تفصيل لصفات كل الحيوانات وخصائصها ومقارنة بينها وبين بعض صفات النفس الإنسانية .

وفي الحقيقة ، فان النفس الإنسانية خليطٌ عجيبٌ لمجموعةٍ من الخصائص والمميزات . فالإنسان قادرٌ على أن يكون أحقر شأناً من أحقر المخلوقات والحيوانات . وفي الوقت نفسه ، فان النفس الإنسانية قادرةٌ على الشموخ والسمو ، بحيث تصل إلى درجةٍ أشرف من الملائكة ، « والملائكة خدامنا ، وخدام شيعتنا » .

فهو ينحط إلى أسفل السافلين ، أو يعلو ويرقى في العلم والمعرفة ، والفضل حتى يصل إلى الملأ الأعلى . وبالطبع فان العلوّ والسموّ حتى أرقى الدرجات ، يستوجب عناءً ومشقةً بالغين . وقد يتدهور الإنسان إلى أحط المراتب الحيوانية إلاّ أنه إذا سمَى وارتفع ، فليقلد الإمام وليس الفنان

الفلاني .

للشيخ الشوشتري كلمة بليغة ذكرها في إحدى مواعظه أنقلها إليكم هنا .

عيسى مصلوبٌ في وجودك :

يقول الشيخ الشوشتري : في النفس الإنسانية هناك نماذج حية من قابيل وهابيل ، ومن موسى وفرعون ، فقد تضم النفس الإنسانية على فرعون بقدر ما فيها من موسى . فالفرعونية تتجسد في الإنسان حينما يردد دائماً كلمة (أنا) أنا فعلت أو أفعل ، أو أفعل ما أريده . إلّا أنا وجود موسى في ذات الإنسان قد يكون بالغ الضآلة أو ميت أحياناً ، وذلك أن فرعون قد تربّع على عرش وجودك ويتحكم في هذا الوجود . فان لم يلتفت الإنسان لذاته وروحه وقلبه ، يعيش يهودا ، ويتحكم في هذه الذات . أي أن النفس تصبح شقية بهذا الوجود ، وتصبح سجينة لفرعون أو يهودا .

النفس متعطشة للعلم والإيمان :

في وجود المسلم هناك محمد صلى الله عليه وآله ، وأبو جهل ، فإلى أي جهة ستميل ذات المسلم ؟ لقد قتل في وجوده الرسول صلى الله عليه وآله لأنه اختار أبا جهل ، ومع ذلك يعتقد بأنه مسلم حقيقي ، وذات المسلم فيها كل من الإمام الحسين عليه السلام نور عين خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله ، ويزيد الكافر . هناك علي عليه السلام وأبو ملجم أيضاً .

يا قتلة عليّ عليه السلام ، يا أيها الذين يرتكبون الذنب بدون خوف ولا رهبة .

هذه هي حقائق الإيمان ، فالإيمان نور عين محمد صلى الله عليه وآله كما أن الحسين عليه السلام نور عينه . يا أيها الذين يوشك إيمانهم على الزوال ، إن حسين وجودكم عطشان ، فاسقوه ماء العلم والإيمان ، ولا تعززوا

وجود يزيد شارب الخمر فيكم ، فشرب الخمر يقتل الحسين في وجودكم ويقوي وجود يزيد فيه .

لا تعرّوا حسين وجودكم :

أيها المسلمون لا تقطعوا يدي أبي الفضل من وجودكم ، لا تتركوا التقوى والورع وحافظوا على يدي أبي الفضل في هذا الوجود . قد سمعتم بأن الحسين عليه السلام قد خلع عنه قميصه ، فلا تخلع الحسين عن وجودك ﴿**ولباس التقوى ذلك خير**﴾ . فكل من يضع لباس التقوى جانباً ، فكأنه عرّى الحسين من وجوده .

الإمام قتل وجوده :

صاحب كتاب « جامع الدار » هو من علماء وفضلاء مدينة طهران . والمأثور عنه رؤيا ملكوتية كتبها ، حيث يقول : قبل عدة سنوات عزم أحد تجار طهران زيارة مدينة مشهد المقدسة ، وقد رأيته عندما جاء لتوديعي .

وبعد عدة أيام رأيت في عالم الرؤيا أنني في حرم الرضا عليه السلام ، حيث كانت روح الإمام عليه السلام حاضرة ، فطلب التاجر الطهراني إذن في الدخول ، ثم دخل الحرم ، وأصبح وجهاً لوجه مع الإمام الرضا عليه السلام . وهنا وجّه حربته نحو صدر الإمام لطعنه . وقد طعن الإمام بثلاث طعنات كانت الثالثة هي القاتلة .

وبعد عودة صديقي التاجر من زيارة مشهد المقدسة ، ألححت عليه في الرجاء أن يخبرني عن كل ما لقاه في زيارته جملةً وتفصيلاً ، إلاّ أنه رفض ، وقال : إنها كانت زيارة عادية .

ولم أجد بدّاً في نهاية الأمر من إخباره بالرؤيا التي رأيتها .

مصافحة الأجنبية كانت طعنة للإمام :

فأخبرني التاجر بما جرى ، وبدأ يبكي . قال : عندما دخلت الحرم الشريف وقعت عيني على إمرأةٍ في زحمة الضريح ، ولأن يديها قد لفتت نظري ، فقد وضعت يدي عليها .

نعم ، لقد كانت هذه الحركة طعنةً لوجود الإمام الرضا عليه السلام في باطنه .

إن الإنسان ليشهد عجباً اليوم ، فإذا نشرت الصحف عن رواج مرض الزكام ونصحت بالإمتناع من مصافحة الآخرين ، فالكلّ مستمع وملبي لهذه النصيحة . فلماذا لا ينصت المسلم إلى نصائح طبيبه الروحي ، إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله حين يقول : إن ملامسة الأجنبي للأجنبية يعني ملامسة النار .

ثم واصل التاجر الطهراني حديثه ، وقال : ثم تلاقت نظراتنا ، وخرجنا سويةً إلى الرواق ، وذهبنا إلى آخر الشوط .

وهنا قتل التاجر الإمام في وجوده . والرؤيا التي رآها صاحب كتاب « جامع الدار » لا تتعلق بذات الإمام الرضا عليه السلام بل بوجوده فينا .

فالإمام الموجود في ذات الإنسان هو نفس الشخص الذي سيراه الإنسان ساعة الموت .

فحذار أيها المسلم أن توجه طعنات إلى وجود الإمام علي عليه السلام في ذاتك فستراه ساعة الموت مجروحاً .

إرتكاب الذنب يعمي الإمام في ذاتك :

قبل سنوات عديدة جاءني أحد علماء الدين المحترمين ، طالباً مني تفسير

حلم مخيف قد رآه ، وقال : رأيت الإمام الحجة ابن الحسن العسكري (عج) وهو يعاني من سكرات الموت ، وفاقداً لعينه .

وقد طلبت من عالم الدين أن يعفيني من تفسير هذه الرؤيا ، إلّا أنه أصر على تفسيرها وأخيراً قلت له : إن الإمام الذي رأيته في رؤياك لم يكن إمام الزمان (عج) الموجود خارج ذاتك ، بل هو الموجود في داخلها . لقد أفقدته بصره بحبك للدنيا ، ألم يقل الإمام عليّ عليه السلام : « من أبصر فيها أعمته » . فلقد حرمت عين قلبك من الإبصار بحب الشهوات ، ونسيان الآخرة ، بعد أن أصبح كل همك جمع المال ، والوصول إلى الجاه والمنصب ، فحب المال والعز ، والسلطان كلها سهام موجهة إلى عينك ، فإلى متى تستطيع عينك تحملها ، وتبقى قادرة على الإبصار ؟ .

أما سكرات الموت التي كان يعاني منها الإمام في الرؤيا ، فهي سكرات الإيمان . ألم يقل القرآن : **﴿ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوء أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن﴾**[1] .

فبكى هذا الرجل كثيراً ، ووعد بالتعويض عن ما فاته .

لتكف الدنيا عن قتل الإمام علي الموجود في ذواتنا ، فعليّ هو رمز لحب الخير ، ومعاوية رمز لحب الجاه والسلطان .

كيف يمكن أن تحرم محبيك رحمتك وأنت الذي شملت الأعداء بعطفك

راحة الإنسان في راحة الآخرين :

من خصائص السم أنه يسبب العطش الشديد للمسموم . وعندما انتشر السم في جميع أنحاء جسم الإمام عليه السلام كانوا يسقونه اللبن[2] بانتظام ،

---

(١) سورة الروم ، الآية : ١٠ .

(٢) يعني الحليب .

فكان يوصيهم باسقاء السجين كذلك .

نعم ، على الإنسان المسلم أن يفكر بالآخرين حتى ولو كانوا أعداءً ، وأن لا يكون أنانيّاً ، لا يهمه سوى إشباع رغباته وأهوائه ، فالمهم أن يشبع هو وليذهب الآخرون إلى الجحيم ، ولينجز عمله هو ولا يهم بعد ذلك أن يسحق حقوق الآخرين . والأنانية هي طريق وأسلوب معاوية ويزيد ، فليكن المسلم وسيلة لاسعاد الآخرين ، وليس أداة لسلب راحتهم وسعادتهم .

نعم . كانت سعادة الإمام عليّ عليه السلام في سعادة الآخرين ، والإلتزام بالإمام عليّ كمثل أعلى في حياة الإنسان المسلم ، يعني إحياء الإمام عليّ في ذاته ووجوده . أما الأنانية فتعني قتل عليّ عليه السلام في هذا الوجود .

لنكف عن قتل الإمام :

ليسعى الإنسان كي لا يرى الإمام ساعة الموت ، وهو مجروحٌ أو مقتولٌ ، فأعمال الإنسان في هذه الدنيا هي التي تقتل الإمام في ذاته ، وكل حسب طاقته وحدوده ، فسواء أكان المسلم يمارس وظيفة إدارية أم ثقافية أم عسكرية ، عليه الإلتزام بذلك في أن لا يقتل الإمام في وجوده .

والحمد لله ، فان المسلمين الإيرانيين ـ ورغم عاداتهم وتصرفاتهم السيئة ـ على علاقة بأهل البيت ، وهذا ما يشكل في الواقع مدعاة للفرح والأمل ، إذ هم يقيمون الصلاة ويصومون شهر رمضان ، ويقيمون مراسم العزاء في شهري محرم وصفر إلاّ أن هذه الرابطة ضعيفة ، ويجب تقويتها .

التعلق وليس الهروب :

الحمد لله والشكر ، فنحن لسنا بفارّين ، وإن كنا في الحقيقة غير متعلقين كما ينبغي ، ورغم ذلك ، فان القلوب كلها تتجه لعليّ ، واجتماعنا اليوم باسم

عليّ عليه السلام . وأحياناً تتملكنا الخشية من انقطاع تعلقنا وحبّنا لأهل البيت عليهم السلام .

فيا إلٰهي احفظنا كي لا نهرب من بيتك ، وأن لا نكون أذلاء لهوى النفس ووسوسة الشيطان . وببركة هذه الرابطة نعود مرة أخرى إلى خالقنا « إلٰهي لم أعصك حين عصيتك . . . » وقال الشاعر :

إن كان هواك يريد الإحتفاظ بارتباطه
بالرفيق فامسك برأس الحبل ليحفظها لك

الإستغفار ببركة رابطتنا بعلي عليه السلام :

نقل كتاب « كشف الغمة » عن رسول الله صلى الله عليه وآله أن الله سبحانه وتعالى خلق من نور جبين علي عليه السلام سبعين ألف ملكاً ، لأجل أن يستغفروا لمحبي علي وشيعته .

نعم ، إن هذه الرابطة التي تربطنا بأمير المؤمنين عليه السلام توجب استغفار هذه الملائكة لنا . وهذا أيضاً من بركات الإمام عليّ عليه السلام أن يجعل الملائكة ترفع الحجب عن قلب محبه ، وتدفعه إلى أبواب الرحمة الإلٰهية ، بحيث يردّد ـ وكله أمل في مغفرة الله ـ يا ألله ، إلٰهي العفو العفو العفو .

محبة علي تمنع ارتكاب الذنوب :

عندما عرج خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله إلى السماء ، شاهد في السماء الرابعة وجهاً نورانيّاً تطوف الملائكة حوله . وعندما اقترب الرسول منه أكثر ، وجد الإمام عليّاً عليه السلام يجلس على كرسي . فسأل جبرائيل : هل إن عليّاً قد عرج إلى السماء قبلي ؟

فأجابه جبرائيل : لا ، إلاّ أن الله ـ عزّ وجلّ ـ ولشدة شـوق الملائكـة إلى عليّ ، قد خلق ملكاً على صورة الإمام ، لاظهار حبهم له . وأضاف قائـلاً : لو كان أهل الأرض قد أحبوا عليّاً كما أحبّه أهل السمـاء لما خلق الله النـار . وهذا صحيح ، فالذي يحبّ عليّاً عليه السلام لا يرضى بارتكاب الذنوب .

الفصل الرابع عشر

يوم الحادي والعشرين من شهر رمضان المبارك .

الإعتقاد بأن الموت يعني العدم :

قد نتساءل : ما هو الموت إذن ؟ هل هو شيءٌ مخيفٌ ومرعبٌ ؟ هل هو مصيبةٌ كبرى ؟ هل يحمل معنى العدم والفناء للإنسان ؟

عندما يموت شخصٌ ما ، يصيب أهله الفزع والجزع والحزن الشديد ، إذ يعتقدون أنه قد آل إلى الفناء والعدم

فعندما يموت حيّاً ، فانه كان موجوداً بينهم ؛ أما وقد مات فقد أصبح في حكم العدم . ومعظم الناس يكرهون الموت إلى الحد الذي يتجنبون ذكره ، فهم يجهلون ماهيته ، وحقيقته ، ويرونه بمثابة الفناء ، واللا شيء .

على كلّ مسلمٍ أن يقرأ أخبار أهل البيت جيداً ، ليكون على وعيٍّ وإدراكٍ كاملٍ بأحكام العلماء والمحققين فيما يخص الموت وماهيته .

ذات الإنسان وذات الحيوان :

هناك فرق شاسع بين معنى موت الإنسان ، وموت الحيوان . قد يقال : بأن الإنسان ما هو إلاّ حيوان ناطق ، إلاّ أن ذلك لا يعني أن الحيوانية تغطي على كل وجوده . وكل المخلوقات الحية الأخرى غير الإنسان من حشرات وزواحف ، وأبقار ومواشي ووحوش ، تختلف في ذاتها ، وحقيقتها عن الإنسان في حياتها وقوتها على السواء ، فموت الحيوان يعني فناءه وعدمه . فعلى سبيل المثال الحمار يموت ويفنى جسده ويتحلل تدريجياً ، ويختلط بالتراب . أي إن موت الحمار يعني فناءه[1] .

الموت الحيواني والموت الإنساني :

والإنسان يموت أيضاً ، إذ يفقد بدنه القدرة على العمل ، وتتلاشى حواسه إلاّ أن روحه تبقى خالدة ، لا تفنى كجسده ، إذ لا يمكن تحديد حياة الإنسان بالقيود المادية والماديات فقط كالحيوان الذي تنتهي حياته كليّاً بموته ، وبمعنى آخر فان حياة الحيوان محدودة « خلقتم للبقاء لا للفناء » . فالإنسان خالدٌ أزليٌّ ، ومن ثَمَّ فانه يختلف عن الحيوانات الأخرى .

فقد خلق عالم الوجود من أجل الإنسان . والإنسان خلق للحياة الأبدية ، وليس للعالم المادي المحدود . فعمر الإنسان محدد بسنوات محدودة ، طالت أم قصرت ، على هذه الكرة الأرضية . نعم خلق الإنسان للسعادة الأبدية ﴿خالدين فيها﴾ والنفس الإنسانية خلقت لتبقى وتخلد .

الموت هو حرية وراحة :

موت الإنسان يحمل معنى حرية روحه الشفافة من قيود المادة الثقيلة .

---

(١) المترجم : هناك نظرية أخرى تقول بأن كل مخلوق حي يبعث يوم القيامة .

وبتعبير أكثر واقعية : الموت هو كحلول وقت الحصاد ، فالإنسان يزرع لمدة أربعين سنة أو خمسين سنة ليحصد نتائج أعماله « الإيمان والعمل الصالح » وما ساعة الموت إلّا ساعة حصاد النتاج والمحصول والإستفادة مما زرعه الإنسان خلال حياته الأرضية .

ومتى ما مات الإنسان ، فانه يبدل ثوبه المادي القذر بثوبٍ آخر ، يمتاز بالشفافية واللطف ، ويتحول من حالة الضعف التي كانت تسيطر عليه في حياته إلى حالةٍ من القدرة والقوة ، ومن المحدود إلى اللا متناهي .

ففي جسد الإنسان المحدود تتحدد وتتقيد كلّ الاحساسات والمشاعر الإنسانية ، وحتى الروح اللامتناهية تخضع لهذه القيود .

فالعين لا تستطيع الإبصار إلى مدى أبعد من عدة كيلو مترات مثلاً . والأذن تعجز عن سماع الصوت أكثر من أمتار معدودة ، ويجب توفر الظروف المناسبة لانتقال الصوت إليها ، وإلّا انعدمت هذه الحاسة نهائيّاً . والحدود والقيود المادية تشمل تناول الغذاء أيضاً . ومشاكل سوء الهضم أو سوء التغذية ، التي تصيب الإنسان إلّا أنه وبعد الموت ، يتخلص الإنسان من كلّ هذه القيود والأعباء المادية التي كبلته في الحياة الأرضية .

فالجنة مثلاً ﴿أكلها دائم﴾[1] . وفي الحقيقة فان الإنسان يعجز عن إدراك وتصور ماهية وحقيقة اللذات التي قد تكون من نصيبه في الآخرة . أو أن يشعر بمعنى الثمار اللذيذة التي سيأكل منها في الجنة ، ولا يشعر بعدها بالتخمة ، والامتلاء فهي رغبة بعد رغبة ، تقول الروايات : إن لطعام الجنة مئة ألف طعم وطعم .

---

(١) سورة الرعد ، الآية : ٣٥ .

جنة البرزخ :

قال الإمام الصادق عليه السلام لعبدالله بن سنان : أترغب أن أريك جنة البرزخ ؟ فقال ابن سنان : أي نعم . فضرب الإمام عليه السلام الأرض بقدمه ، فرأى ابن سنان وإلى الحد الذي وصل إليه نظره بساتين عظيمة ، وأنهاراً جارية من حليبٍ وعسلٍ وماءٍ عذبٍ وشرابٍ ، وحورياتٍ فائقات الجمال بأيديهن أقداحاً ، فقدمت إحداهن للإمام قدحاً ، فشربه ، وأمر باعطائي قدحاً مماثلاً ، فشربت أنا أيضاً ، فوجدت فيه طعماً ولذةً ، ولم أذق مثلها في حياتي .

إن استقرار وراحة الإنسان تكمن في المكان الذي لا يطرد منه إلى أبد الآبدين أي الجنة ، وإلى جوار محمد وآله صلى الله عليه وآله فعلى سبيل المثال : حتى لو بنى الإنسان لنفسه بناءً من عدة طوابق فانه سيطرد منها يوماً ما ، ويدفن جسده الفاني في قبرٍ من القبور .

وهذه هي نهاية الدنيا ، إذ ليست بمكانٍ للبقاء والخلود الأزلي .

روح الموتى ترى وتتكلم :

﴿كل نفس ذائقة الموت ، ثم إلينا ترجعون﴾[1] . **﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾**[2] قد يقول الإنسان : إنني لا أرى شيئاً ، فالجسد يفنى والروح ليست بمادةٍ حتى ترى بالعين المجردة .

فالموت لا يعني فناء الروح ، بل هي سترفرف فوق جنازتها ، وتنادي أهلها « لا تغركم الدنيا كما غرتني ، جمعت من حله وغير حله ، فالمهنّأ غيري والوزر عليّ » .

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية : ٥٧ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٥٦ .

كان خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله يسمع أصوات الموتى وأخبارهم ، وقد قال : بأن الروح عندما تنتقل إلى عالم البرزخ تفرح وتحزن ، ولبعض الناس فان الموت هو بداية للفرح ، ولبعضهم الآخر بداية للألم والحزن والعذاب إلاّ أن حكمة الله تعالى قد اقتضت أن لا تسمع الأذن البشرية سوى أصوات الدنيا ، وإلاّ لعجز الإنسان عن الإستمرار في الحياة .

الموت إما بداية للراحة أو العذاب والمشقة :

للبرزخ أحداث كأحداث الدنيا إلاّ أنها أقوى وأشد ، فان كان الإنسان في حياته الدنيوية من أصحاب الخير والرحمة والحق فحياته في البرزخ ستكون كلها سرورٌ ومحبةٌ وراحةٌ . فالذين لم يحبوا سوى الله ـ عزّ وجلّ ـ ولم يقوموا إلاّ بالأعمال الصالحة التي تقربهم إليه ، فالموت سيكون بالنسبة إليهم أول خطوة على طريق الوصال والإتصال به تعالى .

فهل يمكن مقارنة هؤلاء بأولئك الذين لم يعرفوا في حياتهم معنى للصلاة أو الصوم ؟ فالويل للجيل الجديد ، التارك لصلاته وصومه ، فالقرآن الكريم يقول : **﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيّاً﴾**[1] .

رحمة الله تتنزل عند موت الشاب :

لا ينبغي أن نأسف لموت الشاب ونقول : يا حسرة على شبابه الغض ، فلم يبلغ بعد الثامنة عشر من عمره ، فلو كان القصد من هذا القول أن ليته بلغ السبعين أو الثمانين من العمر ليتم صلاته وصومه ، فان هناك ثلاثة أمور : شهادة أن « لا إله إلاّ الله » . فان مات وهو موحد فقد قبل عمله ، لأنه كان صحيحاً ؛ فما فائدة الصلاة والصوم لدى من يعمّر طويلاً ، إلاّ أنه في حقيقته كان ضعيفاً أو فاقداً للإيمان الحقيقي ؟

---

(١) سورة مريم ، الآية : ٥٩ .

أما الأمر الثاني ، فهو أن رحمة الله تتنزل عند موت الشاب الغض إذ أن موته يبعث على ألم القلوب وتأثيرها ، فتزداد رحمة الله عليه وتتسع لتشمل أهله وأقاربه كافة . وكما قال الإمام الصادق عليه السلام : « توجب الجنة لأُمّه وأبيه حتى وإن لم يستطيعوا الصبر » .

والأمر الثالث والأخير ، فيتجسد في شفاعة محمد وآله الأطهار صلى الله عليه وآله ، فالرسول سيسارع بالشفاعة للشباب وقد لا يشفع لبعض الكهول القساة القلوب .

المصلحة من موت الشاب :

الشاب الذي يبلغ الثامنة عشر من عمره سرعان ما يعشق الإمام عليّ عليه السلام ومتى ما ذكر إسمه أمامه . أما الكهل الذي بلغ الثمانين من عمره فقد يكون قلبه قد عشق قبلاً المال والجاه ، والرزق الوفير ، وزخارف الدنيا ، ومغرياتها ، ومن ثم فليس في قلبه من مكانٍ لعشق آخر . فقد ملكت الدنيا كل حواسه ومشاعره .

ولا نعني هنا أن يتمنى الشباب الموت السريع والمبكر ، بل ليعلم الإنسان أنه متى ما قدر له الموت المبكر ، فان ذلك قد يكون لمصلحته حيث أن المزيد من الحياة قد يحمل له الفساد وضعف الإيمان والتردي في مهاوي الشهوات والملذات الدنيوية .

الشباب الطاهر والموت النموذجي :

قال المرحوم مصلح : كان لي أخ مات وهو في الثامنة عشر من عمره . رقد شهرين في الفراش ، ثم انتقل إلى رحمة الله . ورغم مرضه فقد دأب على قراءة زيارة الاثني عشر إماماً المعصومين (زيارة الخواجة نصير) أو الزيارة الجامعة . وفي يوم من الأيام أخبروني بأن أخي ، وبينما كان يقرأ الزيارة

الجامعة ، وعندما وصل إلى ذكر إسم الحجة (عج) قام واقفاً إجلالاً واحتراماً ، ثم وقع على الأرض لشدة ضعفه ، ولم أصدق ما قيل لي ، فلم يبق من أخي سوى الجلد والعظم ، ومن المستحيل عليه أن يقف بدون أية مساعدة .

فقررت البقاء إلى اليوم التالي ، لأرى بنفسي حقيقة الأمر .

وهكذا كان ، حيث طلب منا أن نتركه وحيداً ، عندما رغب في قراءة زيارة الخواجة نصير ، فخرجت من الغرفة إلاّ أنني اختبأت في مكان يتيح لي رؤيته بدون أن يشعر .

فوجدته يقوم كلما أتى على ذكر معصوم من المعصومين إلاّ أنه ولضعفه كان يقع على الأرض ، حتى وصل إلى إسم الحجة ابن الحسن (عج) فرأيته يقف ، وكأنه يريد تقبيل قدم شخص ما . ثم انطرح أرضاً فهرعت إليه وساعدته على النهوض ، ومن ثَمَّ النوم في فراشه .

فقال لي : إن هذا آخر يوم في حياته ، وأن أقرأ له دعاء العديلة .

نعم ، شاب في الثامنة عشر من عمره استطاع بروحه الشفافة وإيمانه العظيم أن يصل إلى هذه الحالة من التسامي بينما هناك شيوخ في الثمانين يعجزون عن ذلك .

ومن المؤكد أن الإنتفاع من سن الشباب للوصول إلى هذه الحالة هو أمر بالغ الجمال والعذوبة ، وشيء جيد في الشيخوخة أيضاً . وكما يقال : « أعطى مالاً فله الحمد ، أخذ مالاً فله الشكر » فشكر الباري ـ عزّ وجلّ ـ واجب في الصحة والمرض ، وكل ما يأتينا منه جميل لعلمه بمصلحتنا .

تشملهم الرحمة حتى يوم القيامة :

أكثر شهداء كربلاء كانوا شباباً وشملتهم رحمة الله الواسعة .

والرحمة على هؤلاء أكثر من الرحمة على بقية الشهداء ، متى ما مات

الشاب تتنزل رحمة الله سبحانه وتعالى على أبيه وأمّه ، أما في حالة شهداء كربلاء ، فان الرحمة تتنزل عليهم وعلى كل من يحزن عليهم ، وحتى قيام الساعة . **﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ، ونقص في الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين﴾**[1] .

والثمرات هنا هي ثمرة العمر ـ أي الأولاد ـ وفي هذا إمتحان لصبر الناس على موت فلذة أكبادهم وشبابهم .

نعم . لقد كان الإمام الحسين عليه السلام صابراً ، وعلى الجميع الإقتداء به . فقد فقدَ عليّاً الأكبر ، ثمرة فؤاده ، وصاح وقتها : « واولداه واثمرة فؤاداه ، وامهجة قلباه » .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٥٥ .

الفصل الخامس عشر

٧ ـ ذي الحجة ، وفاة الإمام الباقر عليه السلام .

ذكر الله تعالى في أيام معدودات :

تعتبر الأيام العشرة الأولى من شهر ذي الحجة من أفضل الأيام التي يستحسن فيها ذكر الله تعالى **﴿أيام معلومات﴾** . فيجب على جميع المسلمين أن يذكروا الله كثيراً في هذه الأيام **﴿واذكروا الله في أيام معدودات﴾** .

وذكر الله تعالى يتضمن مراتب عديدة منها ذكرِ آل محمد عليهم السلام حيث أن ذكر أحباب الله إنما يعني ذكر الله ـ عزّ وجلّ ـ .

يروى عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام : إن الملائكة قد أمرت بالإستعاضة عن قدر من التسبيح والتهليل بالصلاة على محمد وآله . ويقال : إن الملائكة تحضر كل مجلس يذكر فيه آل محمد الأطهار عليهم السلام لتباركه ، وإنها بعد انتهائه تعرج إلى السماء ، وتفوح منها رائحة طيبة .

وعندما تسأل الملائكة عن مصدر هذا العطر العجيب ، تجيب إنه من الأرض من مجلس ذكر فيه إسم محمد وآله صلى الله عليه وآله .

وبمناسبة وفاة الإمام الباقر عليه السلام سوف نخصّ هذه الليلة ، السابع من شهر ذي الحجة بالتحدث عن إحدى مراتب الذكر ، وهي ذكر هذا الإمام عليه السلام .

الرسول صلى الله عليه وآله منح لقب الباقر :

إسمه الشريف محمد ، ومن أشهر ألقابه الباقر ، وقد منحه إياه جده خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله ، حيث قال لجابر بن عبدالله الأنصاري : سوف يعطيك الله من العمر حتى ترى ابن الحسين وهو من سينادية النداء الإلٰهي يوم القيامة أن فليقم زين العابدين . وسوف يطيل الله من عمرك حتى ترى إبنه ، واسمه من إسمي ـ يبقر العلم بقراً ـ وهو الذي ستجري عيون العلم من قلبه المبارك إلى لسانه المبارك .

وقد أطال الله عمر جابر الأنصاري حتى رأى الباقر عليه السلام ، حيث حمله سلام جده الرسول صلى الله عليه وآله إليه ، وكان يحضر عنده صباحاً ومساء ، وقبل ولادة الباقر عليه السلام كان جابر ينادي أحياناً « يا باقر العلوم » تذكيراً ببشارة الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام .

معرفة الأئمة ، أولي الأمر ، وأهل الذكر :

يجب على المسلمين إدراك بعض القضايا الخاصة بمنزلة الإمام ، فالإمام الباقر هو الوصي الخامس للرسول صلى الله عليه وآله وهو من أولي الأمر الذين أوجب القرآن علينا طاعتهم .

وفي روايةٍ صحيحةٍ ومتواترةٍ : إن جابر الأنصاري قد سأل الرسول صلى

الله عليه وآله عن هوية أولي الأمر . فعدّ عليه الرسول صلى الله عليه وآلـه أسماء الأئمة الاثني عشر وجاءت مرتبة الإمام الباقر عليه السلام الخامسة فيهم .

نعم ، خامس أئمة أهل الذكر الذين أوكلنا الله تعالى إليهم ﴿**فاسألوا أهل الـذكر إن كنتم لا تعلمـون**﴾ . فعلى كافـة المسلمين أن يأخـذوا العلم من أهل الـذكر ـ أي الأئمـة عليهم السلام ، والإستفـادة من علمهم وأحكامهم وكـل مـا يغمض عليهم من المعارف ومن علوم القرآن .

وطبقاً لروايات كثيرة ، واستناداً إلى القواعد العقلية ، فان علم أهل الذكر عليهم السلام موروث عن جدهم صلى الله عليه وآلـه : « أنا مـدينة العلم وعلي بابها » .

ألف باب من أبواب العلم فتحت لعلي عليـه السلام ومن كـل باب فتحت ألف باب أخرى . وعموماً فان علوم أهل الذكر ليست اكتسـابية ، بـل هي فيض إلٰهي ، قـد أُلهم إليهم إلهامـاً ، وكما أن الـرسول صلى الله عليـه وآله قـد أخـذ العلم من منبعـه النقي المطلق ـ الله عزّ وجلّ ـ فكـذلك الأمـر بـالنسبـة لـلأئمـة الأطهار عليهم السلام .

علم الدين لدى أهل البيت :

المعارف والعلوم الدينية تشمل كل ما يتعلق بأسماء وصفـات الله ، وكافـة التفسيرات الشافية والكافية عن قضايا المعاد ، ومبدأ الخليقة وغير ذلك . وليس هناك موضوع يتعلق بالدين والأحكام القرآنية إلّا ويجد المسلم الجواب الشـافي والكافي لديهم .

قال أحد علماء السّنّة : إن علم أي عالم إذا قورن بعلم الإمام الباقـر عليه السـلام كقطرة في بحـر . فكل مسـألة في الـدين يجب عـرضهـا عليهم ، ومـا يرفضونه يكون باطلاً ، لأنهم أهل الذكر .

وقد جاء في القرآن الكريم : إن المؤمنين سيطلعون على الأعمال . وهؤلاء المؤمنون هم الأئمة الإثنا عشر ﴿**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون**﴾[1] إن الله يعلم ما تعملون في السر والعلانية . وأهل الذكر يرون ما تعملون في السر ، فهم يرونكم بعين البصيرة الإلٰهية التي تحيط بكلّ شيء علماً ، ولا يمحىٰ شيء من ألواح قلوبهم الشريفة .

الإمام أخبره عن ذنبه :

في روايةٍ أن أحد الأشخاص قد قال : إن إمرأة كانت تأتيه لتتعلم القرآن . وفي يوم ما اختلى بها . وبعد ذلك ذهب هذا الشخص إلى حضرة الإمام الباقر عليه السلام الذي قال له : ولم يجلس بعد : « إن كل من يرتكب ذنباً في الخفاء ، ولا يراعي حرمة الله ، فان الله سيحرمه من رحمته الواسعة . وبمعنى آخر ، فكل من لا يرعي لله تعالى حقه في السر والعلانية ، فليكن على يقين من أن الله لن يشمله برحمته ولطفه .

ويقول هذا الرجل : طأطأت رأسي خجلاً ، وبكيت بحرقةٍ وقلت أتوب إليه تعالى ، واستغفره من هذا الذنب الذي ارتكبته .

الجدار لا يشكل حاجباً بالنسبة إلى الإمام:

وقف أحدهم في أحد الأيام أمام منزل الإمام الباقر عليه السلام طالباً رؤيته . وعندما فتحت الجارية له الباب ، وضع يده على صدرها ، ودفعها بقوةٍ ، وهو يقول : قولي للإمام إنني أريد التشرف برؤيته . إلا أن صوت الإمام وصله من داخل البيت قائلاً : « أدخل لا أم لك » . وعندما دخل عليه وجلس ، بادره الإمام قائلاً : أتعتقد أن الجدار بالنسبة لنا حجاب ؟ وكان الإمام يقصد من

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ١٠٥ .

قوله : هل تتصور أنني لا أراك من خلف الجدار ؟ وكل من يعتقد بذلك فليس لديه معرفة بالإمام .

وفي روايةٍ أخرى : إن شخصاً قد جاء من أفريقيا لزيارة الإمام ، فسأله الإمام عن صديقٍ له يحمل إسم « راشد » . فأجابه إنه بصحة جيدة . فقال له الإمام : « رحمة الله عليه » فقد مات بعد يومين من قدومك إلى هنا . وكرر له نفس الجملة السابقة ، أن لا تعتقد أن هناك شيئاً يخفى علينا .

هم عين وأذن الباري ـ عزّ وجلّ ـ :

« أشهد أنك تشهد مقامي وتسمع كلامي وترد سلامي » . فهم كذلك سواء في الدنيا أو في حياة البرزخ ، أي سواء أكانوا أحياءً أم أمواتاً ، والآن أيضاً ، فان الحجة ابن الحسن العسكري (عج) يرى أعمالنا ، ويسمعنا ، ويشرف على كلّ شيء . « بنفسي أنت من مغيب لم يخل منا » المحيط بنا إحاطة إلٰهية ، والعالم بكلّ ما نفعله سرّاً وعلانيةً .

الأئمة شهداء يوم القيامة :

﴿وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس﴾[1] .

ولو دققنا النظر في معنى الشهادة لأدركنا أنها تستوجب العلم والرؤيا الواضحة . والشاهد على الناس يوم القيامة هو إمامهم في ذلك الزمان ، فهو يرى ويعلم ، ومن يستطيع أن يشهد عليهم في ذلك اليوم .

ويجب أن يدرك جميع المسلمين أن آل محمد عليهم السلام هم جامعين كافة الصفات الكمالية الإلٰهية . وكل صفة كاملة يستطيع عقل الإنسان إدراكها

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٤٣ .

وتمييزها يتصف بها آل البيت الأطهار عليهم السلام وفي أعلى درجاتها . ومقام الإمام يستوجب الاتصاف بهذه الصفات ، إذ أنه سيتصل بمنبع الكمال المطلق .

إذن : يتصف الأئمة عليهم السلام بجميع الصفات الكمالية ، كصفة العدل والعلم والجود والحلم وغيرها .

ظهور الصفات الإلٰهية في الإمام عليه السلام :

يقرأ المسلم في دعاء الجوشن الكبير عن أسماء وصفات الله سبحانه وتعالى . وهذه الصفات تظهر في الأئمة المعصومين عليهم السلام « من عرفكم فقد عرف الله » فعندما يريد المسلم أن يدرك معنى حلم الله وكرم الله تعالى ، عليه أن ينظر إلى حلم وكرم آل محمد عليهم السلام .

وإحياء لهذه المناسبة (ذكرى وفاة الإمام الباقر عليه السلام) نذكر هنا بعضاً من صفات الإمام عليه السلام وذلك لكي نذكر الله ونعرف الله .

صفات الإمام الباقر عليه السلام ومعجزاته كثيرة ، ولكننا سنقتصر هنا على التحدث عن صفة كمالية إلٰهية ، وهي حلمه أزاء الأعداء .

حلم الإمام الباقر مع الأعداء :

أصبح أهل الشام أعداء آل البيت عليهم السلام ، وذلك بسبب الدعايات المعادية التي شنها بنو أمية . ويذكر أنه كان هناك رجل شامي من أعداء أهل البيت عليهم السلام يسكن المدينة . وكان يقول للإمام الباقر عليه السلام : أنت ألدّ أعدائي إلاّ أنني أحضر مجلسك للإستفادة من علمك فقط . وكان حلم الإمام إزاءه واسعاً حقّاً ، إذ يكتفي بالقول له ﴿**لا تخفى على الله خافية**﴾ . ولم يحتقره الإمام قط . بل كان يحترمه ، ويجيب على كافة الأسئلة التي يطرحها عليه .

ورغم ذلك ، فقد كان هذا الشامي لا يتردد أبداً عن إبراز عدائه وحقده على الإمام عليه السلام . وهذا الموقف المتسم بالحلم الكثير هو صفة إلٰهية ، فالإنسان يكفر والله تعالى يحسن إليه « أنت المحسن ونحن المسيؤون» وما أكثر الذنوب التي يرتكبها الإنسان إلّا أن الله ـ عزّ وجلّ ـ يمنحه الفرصة تلو الفرصة ، ولا يحرمه من نعمه ، ولا من مغفرته .

ففي دعاء الجمعة للإمام زين العابدين عليه السلام « إنما تأنيت بهم ليفيؤا إلى أمرك » . فذلك الشامي كان مجالساً للإمام عليه السلام دوماً ولفترات طويلة ويكنّ له العداء ، إلّا أن الإمام الباقر عليه السلام كان يقابل عداءه بحلمٍ وإحسانٍ ومحبةٍ .

وفي يوم من الأيام مرض الشامي ، وأوصى غلامه أن يطلب من الإمام الصلاة عليه إذا مات .

يحيى الشامي بعد موته :

وما كان من الغلام إلا أن بلغ الإمام عليه السلام وصية سيده ، فوافق عليه السلام ، ووعد أن يفعل ذلك . وعندما مات الرجل الشامي وقف الإمام عليه السلام للصلاة على جثمانه ، وصلى عليه ، ورفع يده للدعاء . ثم خاطب الرجل الشامي أن انهض فنهض الرجل ، وكأنه لم يمت .

ومنذ ذلك الوقت ، بدأ الشامي يحضر جلسات الإمام عليه السلام وباخلاص تام ، وقد قال للإمام الباقر عليه السلام : لقد كنت ألدّ أعدائي ، واليوم فأنت أحب أحبائي . فبعد رحيلي عن الدنيا سمعت منادياً ينادي : ارجعوه إلى الدنيا ، لأن محمد بن علي عليه السلام قد دعا الله تعالى أن يرده إليها .

فأدركت مقامك الجليل عند الله ، وبدعائك أحياني الله ثانيةً .

فما أكثر الناس الذين تشملهم رحمة الله تعالى في آخر يوم من عمرهم لأنهم تعساء . نعم يعفو عنهم الله ويلطف بهم ويشملهم برحمته الواسعة ، وهم مذنبون . وذلك لكي يتوبوا قبل رحيلهم عن هذه الدنيا ، وإن ماتوا فيموتوا وهم تائبون .

كان كل هذا في ما سبق أن أوضح لكم الصفات الإلٰهية التي يتمتع بها آل محمد صلى الله عليه وآله .

قال الشاعر :

كيف يمكن أن تحرم محبيك رحمتك وأنت الذي شملت الأعداء بعطفك

وأتمنى أن تجد هذه الكلمات والأحاديث طريقها إلى القلوب ، فعزاؤنا الوحيد في هذه الدنيا هو شفاعة أهل البيت عليهم السلام لنا .

عدوّ الإمام الباقر عليه السلام في نار البرزخ :

يروى أن أحد محبي الإمام ومريديه ، جاء ، وهو يشتكي أبيه الذي كان شامياً ، يكنّ العداء لآل البيت الأطهار ، وقال للإمام الباقر عليه السلام : وبسبب حبي وولائي لكم ، فقد حرمني أبي من أن أرثه قبل أن يموت . والآن وقد مات ، فقد حرمت من الإستفادة من أمواله ، حيث أخفاها قبل أن يموت .

فسأله الإمام عليه السلام : هل تريد أن ترى أين أبيك الآن ؟

وبطبيعة الحال ، فقد كان باستطاعة الإمام عليه السلام أن يرشده إلى المكان الذي أخفى فيه أبوه أمواله ، إلّا أنه طرح هذا السؤال لتكون المصلحة أكبر ، والعبرة أعمق ، وليكشف له قليلاً عن أسرار البرزخ ، وعالم الملكوت بهدف تعزيز إيمانه .

ثم عمد الإمام عليه السلام إلى كتابة عدة كلمات أعطاها للرجل ، وأمره أن يذهب في الليل إلى البقيع ، وأن ينادي : « يا درجان » وأخبره بأن شخصاً

سيظهر له ، وعليه أن ينصت إلى كل كلمة يقولها .

ففعل الرجل ما أمره الإمام عليه السلام وهنا ظهر له شخصٌ ما سأله : هل تريد أن ترى أباك ؟

فقال : نعم . فذهب هذا الشخص ثم رجع ومعه آخر يبدو كالفحمة السوداء ، وقد ظهرت آثار العذاب عليه ، وطوّق عنقه بحبلٍ متينٍ . يقول : فسألته من أنت ؟ فقال : أنا أبوك ، وليتني لم أعادي أهل البيت . فحالي الآن بسبب كرهي وعدائي السابق لهم . وما أسعدك لحبك إياهم . ثم أضاف الرجل : لقد دفنت مئة ألف درهماً في البيت إلى جانب شجرة الزيتون ، لأحرمك من ثروتي . ولأن الإمام قد بعثك ، فآذهب وخذها ، إلاّ أني أطلب منك أن تعطي نصفها للإمام عليه السلام هدية مني .

وفي اليوم التالي ذهب ابن الشامي إلى الإمام عليه السلام ، وقصّ عليه ما حدث ، واستأذنه في الذهاب إلى الشام . وبعد عودته أعطاه نصف ثروة أبيه ، حيث وزعه على السادة من أهل البيت .

وهنا قال الإمام عليه السلام : لقد عفى الله تعالى عن ذلك الشامي . رغم ما كان عنده من حقدٍ ، وخفف عنه العذاب بعد أن أنفق من أمواله .

يا من تلطف بالأعداء :

من يرحم عدوه إذا خدمه ، فماذا يفعل مع الصديق ؟

« أنت الذي تفيض سيبك على من لا يسألك ، وعلى الجاحدين بربوبيتك ، فكيف بمن سألك وأيقن أن الخلق لك » .

نعم . إن الله ـ عزّ وجلّ ـ يشمل برحمته حتى الكفار الذين ينكرون ربوبيته ، فكيف سيكون إذن مع أولئك الذين يقرّون بعبوديتهم إليه تعالى .

وكذلك آل محمد عليهم السلام الذين يتصفون بالصفات الإلٰهية ،

يتعاملون هكذا مع أعدائهم ، فكيف سيكون تعاملهم مع محبيهم ، ومريديهم .

فما لا يرضاه القلب أن يأتي محباً لآل محمد الأطهار يوم القيامة ، وهو مبتلى . وكما تقول الرواية « لن يبقى في جهنم غير المنافق والشكاك » .

الفصل السادس عشر

ليلة ١٨ ذي الحجة ، عيد الغدير .

الفرائض الإلٰهية مع الولاية مفيد :

﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾ .

في عيد الغدير السعيد ، أمر الله الرسول أن يبلغ الناس أعظم فريضة إلٰهية ، إذ قال الله تعالى فيها ـ وللتدليل على مدى عظمتها ـ **﴿وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾** .

ويمكن إدراك أهمية الولاية من خلال هذه الآية الشريفة ، حيث أنها يجب أن ترافق كافة الفرائض والعبادات ، وإلّا لكانت هذه العبادات غير مجدية .

إبلاغ الولاية واجب على الجميع :

أمر الرسول كل مسلم أن يبلغ الولاية إلى الآخرين . وهذا الواجب لا ينتهي حتى يوم القيامة . فعلى الأجيال أن تتناقله جيلاً بعد جيلٍ ، وكما أن الواجبات والفرائض الإلٰهية تنتقل من جيلٍ إلى جيلٍ ، ومن إنسانٍ إلى إنسانٍ ، فكذلك الولاية إذ أنها فرضٌ إلٰهيٌّ . فعلى جميع المسلمين أن يكونوا من أهل الولاية ، وأن نجعل أهلنا وأقربائنا من أهلها كذلك .

اليد قصيرة والتمر على النخيل :

بمناسبة عيد الغدير السعيد نذكر هنا مقاطع من دعاء عرفة للإمام زين العابدين عليه السلام والموجود في الصحيفة السجادية والخاص بالولاية .

يقول الإمام عليه السلام في هذا الدعاء : إلٰهي اليوم هو يوم عطاياك ، فلا تحرمنا منها . واعطنا مما تعطي المقربين منك « وإني وإن لم أقدم ما قدموه » . والإمام هنا يرى خلو ساحته من العمل الذي يستحق به الوقوف على أبواب الرحمة الإلهية ، فهو لا شك مقارنة بعظمة الخلق والوجود . وعندما يذكر عبادته للباري ـ عزّ وجلّ ـ يشهد على خلوّ يده .

أملك الإيمان بالتوحيد :

وبالرغم من عدم تقديمه للعمل اللازم الذي قدموه كما سبق في دعاء عرفة ، فانه يمتلك ثلاثة أشياء ، علينا نحن المسلمين أن نتعلمها أيضاً لكي لا نحرم من بركتها ونعمتها . وكما يقول الإمام زين العابدين عليه السلام فأول هذه الأشياء التي يمتلكها هو التوحيد ، فهو مؤمن بأن لا إله إلاّ الله . ومن ثَمَّ يرى نفسه عبداً ذليلاً أمام ربّ جليل هو الله الواحد الأحد . لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم الرازق الخالق المدبر « إلاّ أني قدمت توحيدك . . . » يقال في دعاء عرفة .

طريق الولاية :

أما الشيء الثاني الذي يملكه الإمام عليه السلام هو إلتزامه بالفرض والطريق الذي أمره الله سبحانه وتعالى أن يسلكه ، أي طريق الولاية . فهو يتقرب إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ من خلال الولاية . إذ لا يمكن التقرب إليه تعالى بوسيلة أخرى . فكل من يتقرب إلى عليّ عليه السلام يكون قد تقرب إلى الله .

أما الأمر الأخير ، كما يقول الإمام في دعاء عرفة ، فهو أنه قد طرق باب الرحمة الإلٰهية وكله عجز وحاجة وتذلل وفقر إلى الله تعالى وكله أيضاً أمل ورجاء وحسن ظن بالكرم الإلٰهي .

التقرب إلى الله عن طريق الولاية :

أدعية الإمام زين العابدين عليه السلام تهديك إلى سبيل العبودية الحقة والمعارف الإلٰهية . ومن المستحيل التقرب إلى الله تعالى بدون التقرب إلى أهل البيت عليهم السلام .

وقد نقل السيد علي خان المفسر وشارح الصحيفة السجادية ـ عدة روايات عن علماء أهل السّنّة لإثبات مسألة أن التقرب إلى الله لا يتم إلّا من خلال الإعتقاد بولاية أهل البيت عليهم السلام .

ومن أجل مزيد من الفائده سنذكر إحدى هذه الروايات ، سائلين الله ـ عزّ وجلّ ـ أن يجعلنا من محبي أهل البيت ، ومن المؤمنين بولايتهم . وببركة هذه الولاية يمنحنا التقرب منه تعالى .

حب علي عليه السلام يوجب قبول العبادة :

عن أحمد الخوارزمي ، المحقق المشهور ، عن سند معتبر ، عن خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله قوله : « ألا من أحب عليّاً قبل الله صلاته وصيامه .

ألا ومن أحب عليّاً أعطاه الله بكلّ عرق في بدنه مدينة في الجنة ، ألا ومن أحب عليّاً حشره الله يوم القيامة آمناً من الصراط والنار » .

إذن : فإن ولاية أهل البيت عليهم السلام هي من ضروريات الإسلام . والكتب الإسلامية مملوءة بما يثبت ذلك .

هناك رواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله تقول : إن محمداً صلى الله عليه وآله قد قال : « يا عليّ لو اجتمعت البحار لتكون مداداً ، والأشجار أقلاماً لما استطاع الجن والإنس أن يعددوا فضائلك » .

في قبول ولاية علي عليه السلام :

نقلاً عن الخوارزمي ، وغيره إنه قال أيضاً : « يا عليّ لو عاش عبد عمر نوح ، تعبد فيه ، وأنفق في سبيل الله ذهباً بقدر جبل أُحد ، وحج بيت الله ألف مرة ، وقُتِل مظلوماً بين الصفا والمروة ، ولم يقبل ولايتك ، فلن يشم رائحة الجنة » .

عدم الإعتقاد بالولاية يعني عبادة هوى النفس

إن الذي لم تتم الحجة عليه بعد ليس موضع بحثنا الآن . أما الذي تمَّ إبلاغه بولاية عليّ عليه السلام ولم يقبلها ، فان عبادته ليست حقيقية بل عبادة لهوى النفس . فالله سبحانه وتعالى قد أمر بالولاية لأمير المؤمنين عليّ عليه السلام ، فكيف يطيع العبد أمر الله تعالى في الصلاة والصوم ، ويستنكف عن طاعته في ولاية عليّ عليه السلام . فهل يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعضه الآخر ؟ ومن ثَمَّ ، فان عبادته الأخرى ـ الصوم والصلاة والحج ـ لا تقوم على أساس الإنصياع والطاعة المطلقة لأمر الله تعالى .

فراحة نفس الإنسان ، قد تكون في قراءة القرآن أو الصلاة ومن ثَمَّ فهي عبادة تلبي هوى النفس ، ذلك أن الله تعالى قد اعتبر الولاية ركيزة للدين .

وعلى هذا فان الذين لم تتم عليهم الحجة ، فمعذورين لجهلهم ، لكنه ، وبصورة عامة ، فان الغالبية قد تمت الحجة عليهم ، وأدركوا معنى الولاية ، ومقام آل البيت عليهم السلام ، ولكنهم يرفضون الإعتراف بها . ولهذا فان كل من يعادي علياً وآل البيت الأطهار ، لا تقبل منه صلاة أو صوم أو عبادة .

الحج مشياً على الأقدام تلبية لهوى النفس :

عن كتاب الحالات : إن عبداً من عباد الله كان يذهب إلى الحج مشياً على الأقدام ، ولمدة سنوات عديدة استمر على هذا المنوال . وبطبيعة الحال فقد كان يتحمل مشقة كبيرة ، وهو يطوي هذه المسافات الشاسعة مشياً على الأقدام . وقد قصّ الحاج ما جرى معه في إحدى ليالي الشتاء الباردة حيث كان نائماً في بيته ووالدته العجوز نائمة على مقربةٍ منه ، يقول الحاج : في منتصف الليل أيقظتني والدتي إذ رغبت في قليلٍ من الماء ، ولأنني كنت أخشى الخروج من فراشي الدافىء ، والبرد قارسٌ جداً فقد رجوتها أن تصبر على العطش ، وقد أوشك الفجر على الطلوع . فسكتت والدتي المسكينة على مضض ، وواصلت نومي ، إلّا انني عجزت عن الإستغراق في النوم ، وغرقت في تفكيرٍ عميقٍ . فكيف تحملت هذا السفر الشاق إلى مكة ، ولعدة سنوات مع ما فيه من تحملٍ للبرد والحر والعطش والجوع ؟ لقد تحملت ذلك لأجل عمل ما هو مستحب . إلّا أن طاعة الوالدين واجبة ، وتركها معصية ، فكيف رفضت تلبية طلب صغير لوالدتي لسبب برودة الجو ؟

لقد أدركت أن حجي سيراً على الأقدام كان إرضاء لهوى نفسي ولم يكن طاعة لله تعالى .

تحمل المشقة بهدف المدح :

هناك البعض الذين بهدف توجيه المديح الزائف إليهم يقولون : إنهم قد

ذهبوا إلى الحج مشياً على الأقدام ، فإذا كان الهدف هو إطاعة أمر الله تعالى ، فلماذا يتساهلون في الأمور الواجبة ؟

وكل من تم إبلاغه بولاية علي عليه السلام كأمر إلٰهي ، عليه أن يهتم بهذا الفرض كاهتمامه بالفرائض الإلٰهية الأخرى . فالولاية هي أهم من الصلاة والصوم والحج وغيرها . فان أقام الصلاة مئة عام ، ولكنه أنكر الولاية ، فمكانه سيكون جهنم .

وقد نتساءل : كيف يمكن أن يكون عمل الخير الذي قام به ذلك الذي يرفض ولاية عليّ عليه السلام غير ذي أثر أو نتيجة ؟ أليس ذلك مناف لعدل الله سبحانه وتعالى ؟

وجواباً على هذا السؤال نقول : إن ذلك العمل كان مطابقاً لهوى النفس ، وليس طاعة لأوامر الله عزّ وجلّ . كما أن الكثير من الناس يخشون الملامة ، والإنتقاد ، ومن ثَمَّ يمارسون الفرائض العبادية الواجبة ظاهرياً كالذهاب إلى الحج . قال الشاعر :

لا يشترى من الغريب الألف بحبة شعير

نعم إن المسلم الذي يرفض ولاية أهل البيت عليهم السلام لن يشم رائحة الجنة فقد يكون قد أنفق أمواله في هذه الدنيا ، وكان لهذا الإنفاق نتائج موضوعية ، كدفع البلاء عنه في الدنيا فقط ، إلّا أن أعماله قد خلت من قيمتها المعنوية ، ولن يثاب عليها في الآخرة بالدخول إلى الجنة فقد كان تاركاً لأهم العبادات الإلٰهية وهي الإعتراف بولاية عليّ عليه السلام .

الفهرس

الموضوع ..... الصفحة

المقدمة ٥
دعاء الله رغبة ورهبة ٥
العبودية في الدعاء ٦
الله يوصي النبي الكريم بالداعين له خيراً ٦
الإخلاص شرط أساسي في الدعاء ٧
أصحاب السفينة الغارقة والدعاء الحقيقي ٧
لو سمع كميل نجواك في ليلة الجمعة ٨
إذا كان الدعاء صادراً من الأعماق، صاحبه التضرع والبكاء ٩
الدعاء الحق ترافقه الإستجابة ١٠
الإعتراض على القدر يخالف العبودية ١٠
زينة العلم الزهد ١١
ملاحظة ١١
لدار الآخرة أولى أن تحب ١١
طلب الشفاء للمرضى والرحمة للأموات ١٢
الله لطيف لا يأخذ العبد بعتابه ١٢
الفصل الأول :
الحاجة تسيطر على الإنسان ١٥

الدعاء نابع عن الشعور بالحاجة ١٦
الحاجة إلى الدعاء حتى في أوقات الراحة والرخاء ١٦
حاجة الطفل إلى أمّه ١٧
العاقل يشعر بحاجته إلى الله ١٨
الله تعالى سريع الإستجابة ١٩
اللص الذي كان يريد قتل أحد الصحابة ١٩
سرعة النجدة الإلٰهية للمظلوم ٢٠
اللص الذي اعتدى على الإمام السجاد (ع) ٢٠
الأم منتهى آمال الطفل ٢١
اللهم هب لنا حالة الإنقطاع إليك ٢٢
الإسم الأعظم في حالة الإنقطاع ٢٢

الفصل الثاني :

الدعاء الذي ليس في محله ٢٥
طلب البلاء من الله سبحانه وتعالى ٢٦
حتمية الإجابة للحاجة الحقيقية ٢٦
الإضطرار الكامل يتجلى في إمام الزمان (عج) ٢٧
دعاء إمام الزمان حقيقي مع انقطاع تام إلى الله تعالى ٢٨
حاجة القلب لا تنسجم مع رجاء اللسان ٢٨
عدم ترك الدعاء في كافة الأحوال ٢٩
النجاة من جهنم أفضل من المعافاة من المرض ٢٩
الدعاء ينبع من القلب ٣٠
الأمل بالرحمة والكرم الإلٰهي وببركة الإمام (عج) ٣١

الفصل الثالث :

باب الله تعالى ليس بحاجب أو مانع ٣٣

أقرب مني إلى نفسي ٣٤
غفران الكنيسة للخطيئة والذنوب محض خرافة ٣٤
كيف يمكن حل هذه المشكلة ٣٥
التوبة أفضل شفيع ٣٥
الشفاعة لقبول الدعاء والتوبة ٣٦
سموّ الروح عند ضريح المعصوم ٣٦
التربة الحسينية وقبول ٣٦
الدعاء عند قبر الإمام الحسين (ع) طلباً للشفاء ٣٧
الصلوات توجب الإجابة ٣٧
لم نخلق تعساء ٣٨
الصلاح في الدعاء والصدقة ٣٨
الدعاء للتعبد وليس لتحقيق مصلحة ٣٩
العناية الإلٰهية ووساوس الشيطان ٤٠
دعاء دخول المسجد والخشوع لله ٤٠
الحاجة الدائمة والدعاء الدائم ٤٠
التسليم المطلق لإرادة الله ٤١
الفصل الرابع :
الأمر يتنافى مع الدعاء ٤٣
حضور القلب كشرط للدعاء ٤٤
إدع بقلب حاضر ٤٥
مجالس العزاء ٤٥
طلب الرحمة للميت صادر من القلب ٤٥
حديث أبو ذر مع ابنه وهو في قبره ٤٦
الإشفاق على النفس ٤٦
تواضع التوسلات ٤٧

التوسل لأغراض مادية ٤٨
الدعاء بتضرع وجدية ٤٨
قبول الصلاة يعتمد على حضور القلب ٤٩
تعمير المنارة عند الصلاة ٤٩
التعود على الصلاة بقلب حاضر ٥٠
عدم الدعاء تكبّر عن العبادة ٥٠
غض النظر عن الأسباب ٥١
الإعتراف بعجز النفس تمهيد لحالة الدعاء ٥١
الدعاء الحقيقي عاقبته المعرفة ٥٢
الحاجة إلى دوام العافية ٥٣
عند المرض يزداد الشعور بالحاجة ٥٣
نبذ التكبر ٥٤
الفصل الخامس :
مسؤولية العلماء الكبيرة ٥٥
الزهد والنصيحة تكليفان إلٰهيّان هامّان ٥٦
الهدف من الحياة ٥٦
النسبة بين المتناهي واللامتناهي ٥٧
رسالة الأنبياء واحدة ٥٧
الإستعداد لرحلة الآخرة ٥٨
مقدار الزهد الواجب ٥٨
موسيقى وأنغام الجنة ٥٩
مباهج ومسرات الدنيا ملوثة ٥٩
الهدف والأمل بالآخرة ٦٠
مرارة الموت ٦٠
الدنيا دار من لا دار له ٦١

القلب المملوء بحب الله يخلو من حب الدنيا ٦٢
التغاضي عن الإنتفاع من الدنيا ٦٢
الخرابة ومجلس رقص الشحاذين ٦٣
إحتفال في البرزخ لاستقبال روح الشيخ الأنصاري ٦٤
كمال الزهد في الإمام علي (ع) ٦٥
الزهد عند المعصية ٦٥
الفصل السادس :
منهج السعادة في الدعاء ٦٧
أي سبيل يختاره الإنسان ٦٧
حب الخير واجب على العلماء بالذات ٦٨
الطابع الإنساني لعمل الخير ٦٩
الدعاء لشفاء المرضى ٧٠
عدم الرضا بأذى المسلمين أو مرضهم ٧٠
إستحباب زيارة المريض مع هدية ٧٠
مواساة المريض ٧١
عيادة المريض المبتلى بمرض مزمن ٧١
عيادة الإمام علي (ع) للمريض ٧٢
إهداء الرحمة للأموات ٧٢
الصدقة الإيمانية عند الإحتضار ٧٣
تشييع جنازة المؤمن ٧٤
زيارة القبور ٧٤
الفصل السابع :
عتاب الجاهل ٧٧
حلم الله عزّ وجلّ ٧٨
واجب العبد مقابل استجابة الدعاء ٧٨

العبد يعطى الأفضل ٧٨
التأخر في الإجابة لزيادة الإنتفاع ٧٩
الأسباب تمنع الإنقطاع ٨٠
الإنقطاع حالة نادرة ٨٠
الفضل الإلٰهي في إجابة الدعاء ٨١
الدعاء المستجاب ٨١
الإضطرار نادر وقليل ٨٢
هب لنا كمال الإنقطاع ٨٢
إمام الزمان (عج) المضطر الكامل ٨٣
الإضطرار الظاهري ٨٣
مفتاح الخزائن الإلٰهية في الآية الشريفة ٨٤
الدعاء يدفع البلاء والضرر ٨٤
حقيقة الدين الإضطرار إلى الله ٨٥
الدعاء وقيمة الإنسان ٨٥
قراءة ﴿أمن يجيب المضطر﴾ لقضاء الحاجات ٨٦
حياء العباد الحقيقيين ٨٧
دعاء اللسان المذنب ٨٨
الفصل الثامن :
اليقين بالتوحيد واجب ٨٩
اليقين المطلق بالأصول الحقيقية ٩٠
المسلمون اليوم والقرآن ٩١
الإهتمام بنشر الحقائق ٩١
أولوية طلب العلم من طلب المال ٩٢
العلوم الأخرى ذات فضل وليست إنسانية ٩٣
قيمة العلم تعتمد على موضوعه ٩٣

تحصيل العلوم الدينية واجب ٩٣
الحوزات العلمية لإرشاد المجتمع ٩٤
طلاب العلوم الدينية لصلاح دين الناس ٩٤
صعوبة الحصول على درجة الفقيه ٩٥
الطلاب أحباء الله ٩٦
اقتران طلب العلم بالتقوى ٩٦
الفصل التاسع :
العلم الإجمالي بالله غير كاف ٩٩
هل ينبغي الجهل للخالق ١٠٠
وإن لم يملك فكيف يعطي ١٠٠
العلم والقدرة أساس أسماء صفات الله ١٠١
الذي أعطى الأسنان أعطى الخبز ١٠١
إرادة الله تفوق كل الإرادات ١٠٢
الغلام الحبشي وقلبه الفطن ١٠٣
الشعور بالذنب دليل العلم ١٠٣
العمل هو دليل العلم ١٠٣
بركة ولاية آل محمد (ع) في أبعادها المختلفة ١٠٤
شمس الولاية في قلوب المؤمنين ١٠٥
الحكمة في الولاية ١٠٥
الفصل العاشر :
إستحياء أخوة يوسف منه ١٠٧
موقف يعقوب (ع) من أبنائه ١٠٨
رقة قلب الشباب ١٠٨
حق محمد (ص) وعلي (ع) أكثر من حقوق الوالدين ١٠٩
لهم حق الخلود على المسلمين ١٠٩

لا يجوز هدر الحق ١١٠
الإمام علي (ع) قسيم الجنة والنار ١١٠
يد الله الباسطة ١١١
أفضال أبي طالب ١١١
محبة آل البيت (ع) ١١٢
أنوار قبة الإمام (ع) ١١٢
الفصل الحادي عشر :
نتائج عدم الإيمان ١١٣
السعي وراء الرزق ١١٤
حقيقة الموت ١١٤
إحاطة الروح بعد الموت ١١٥
مكان المعرفة ليس في جوف الإنسان ١١٦
العلم اللامتناهي في الروح اللامادية ١١٦
قوة الروح رغم الضعف الجسماني ١١٧
الإنسان حاكم على الجسد ١١٨
الإهتمام بالمركب ١١٩
الإعداد للسكن الأزلي ١١٩
مغالطة الحقائق ١٢٠
عشر عباءات بدلاً من واحدة ١٢٠
البركة في اثني عشر درهماً ١٢١
دار الآخرة لرجل من جبل عامل ١٢٢
هل لنا من سبيل إلى بساط العظماء ١٢٣
الفصل الثاني عشر :
التعالي يحرم الإنسان من الدار الباقية ١٢٥
شبر واحد في الجنة أفضل من ملك الدنيا ١٢٦

عاقبة ملذات الدنيا ١٢٧
النظر إلى المستقبل دليل العقل والحكمة ١٢٧
الإهتمام بالدنيا دليل الضعف وضآلة الإنسان ١٢٨
حديث النبي داوود مع متّى والد يونس (ع) ١٢٨
عمر بن سعد والإسلام الظاهري ١٢٩
الإستعداد لحرب الديلم ١٣٠
المهمة الصعبة حرب الإمام الحسين (ع) ١٣٠
حديث الراهب مع كامل ١٣١
إتمام الحجة على ابن سعد ١٣٢
النتيجة المعكوسة ١٣٢
محبو الدنيا وعشاقها هم المحرومون الحقيقيون ١٣٣
افتضاح أمر عمر بن سعد ١٣٣
المسلمون المطردون يوم القيامة ١٣٤
الفصل الثالث عشر :
آيات الأنفس، وآيات الآفاق ١٣٥
إدراك إحاطة الله من إحاطة النفس ١٣٦
قدرة الروح دليل على قدرة الحق ١٣٦
عالم كبير في النفس الإنسانية ١٣٧
الشرايين في جسم الإنسان والجداول في الأرض ١٣٧
الأشجار والجبال كالشعر والعظام في جسم الإنسان ١٣٨
سعادة الروح ونار الحرص ١٣٨
نماذج من الطبيعة الحيوانية لدى الإنسان ١٣٩
الطاووس في التظاهر والقرد في التقليد ١٣٩
الإنسان أرفع من الملك أو أحقر من الحيوان ١٤٠
عيسى مصلوب في وجودك ١٤١

النفس متعطشة للعلم والإيمان ١٤١
لا تعرّوا حسين وجودكم ١٤٢
الإمام قتل وجوده ١٤٢
مصافحة الأجنبية كانت طعنة للإمام ١٤٣
إرتكاب الذنب يعمي الإمام في ذاتك ١٤٣
راحة الإنسان في راحة الآخرين ١٤٤
لنكف عن قتل الإمام ١٤٥
التعلق وليس الهروب ١٤٥
الإستغفار ببركة رابطتنا بعليّ (ع) ١٤٦
محبة علي تمنع ارتكاب الذنوب ١٤٦
الفصل الرابع عشر :
الإعتقاد بأن الموت يعني العدم ١٤٩
ذات الإنسان وذات الحيوان ١٥٠
الموت الحيواني والموت الإنساني ١٥٠
الموت هو حرية وراحة ١٥٠
جنة البرزخ ١٥٢
روح الموتى ترى وتتكلم ١٥٢
الموت إما بداية للراحة أو العذاب والمشقة ١٥٣
رحمة الله تتنزل عند موت الشاب ١٥٣
المصلحة من موت الشاب ١٥٤
الشباب الطاهر والموت النموذجي ١٥٤
تشملهم الرحمة حتى يوم القيامة ١٥٥
الفصل الخامس عشر :
ذكر الله تعالى في أيام معدودات ١٥٧
الرسول (ص) منح لقب الباقر ١٥٨

معرفة الأئمة، أولي الأمر، وأهل الذكر ١٥٨
علم الدين لدى أهل البيت ١٥٩
الإمام أخبره عن ذنبه ١٦٠
الجدار لا يشكل حاجباً بالنسبة إلى الإمام ١٦٠
هم عين وأُذن الباري عزّ وجلّ ١٦١
الأئمة شهداء يوم القيامة ١٦١
ظهور الصفات الإلٰهية في الإمام (ع) ١٦٢
حلم الإمام الباقر مع الأعداء ١٦٢
يحيى الشامي بعد موته ١٦٣
عدوّ الإمام الباقر (ع) في نار البرزخ ١٦٤
يا من تلطف بالأعداء ١٦٥
الفصل السادس عشر :
الفرائض الإلٰهية مع الولاية مفيد ١٦٧
إبلاغ الولاية واجب على الجميع ١٦٨
اليد قصيرة والتمر على النخيل ١٦٨
أملك الإيمان بالتوحيد ١٦٨
طريق الولاية ١٦٩
التقرب إلى الله عن طريق الولاية ١٦٩
حب علي (ع) يوجب قبول العبادة ١٦٩
في قبول ولاية علي (ع) ١٧٠
عدم الإعتقاد بالولاية يعني عبادة هوى النفس ١٧٠
الحج ماشياً على الأقدام تلبية لهوى النفس ١٧١
تحمل المشقة بهدف المدح ١٧١